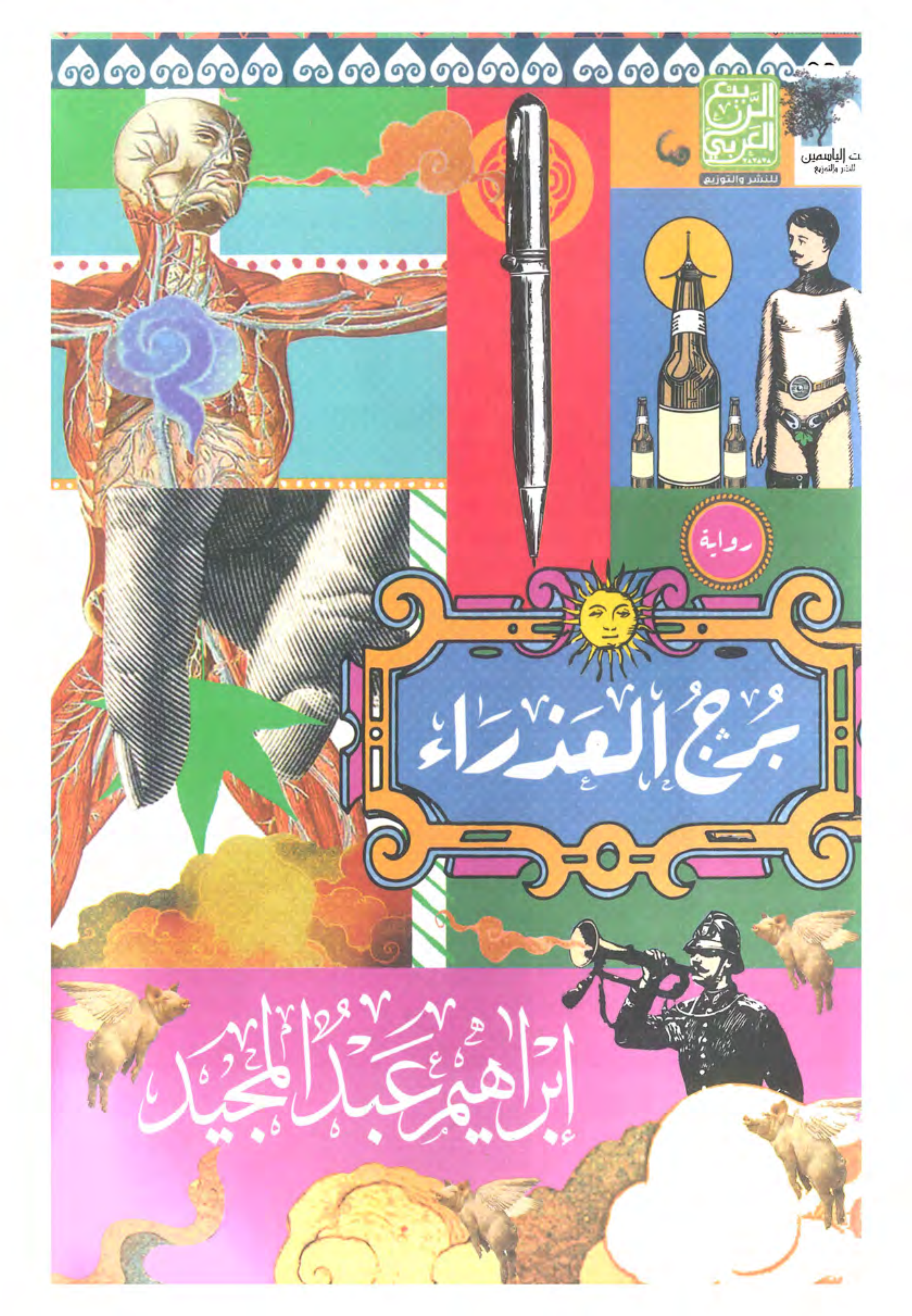


الربيع العربي
للنشر والتوزيع
دار الياسمين
للنشر والتوزيع
رواية
برج العذراء
إبراهيم عبد المجيد

بُرجُ العَذراءِ

برج العذراء

رواية

إبراهيم عبد المجيد

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الداخلي: آب إمام - آب ستوديوز

آب ستوديوز ab studios

طبعة أولى دار الربيع العربي وبيت الياسمين يناير 2015

طبعة دار الآداب 2003

عبد المجيد،إبراهيم

برج العذراء، رواية،

ط1 دار الربيع العربي وبيت الياسمين، القاهرة، مصر.

ردمك: 1-26-5221-977-978

رقم الإيداع(مصر): 2014/20996

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

002-01141411118

002-01140848568

www.rabe3arabe.com

rabe3arabe@gmail.com

rabe3arabe

بيت الياسمين

الإشراف العام: زياد إبراهيم

53 ش خيرت - ميدان لاظوغلي - القاهرة - مصر

002- 27949885

002- 01110094625

Baitelyasmin@yahoo.com

إبراهيم عبد المجيد

برج العذراء

رواية



-1-

أراد الدخـول بالسـيارة في الطريـق الزراعـي، فوجـد نفسـه في الطريـق الصحـراوي..

الوقـت يقـترب مـن المسـاء. الجـو حـار خانـق. درجـة الرطوبة لا تُطـاق. لقـد أمـضى شـهرًا في المستشـفى في جـوٍّ بـاردٍ، فمـن أيـن تـأتي هـذه الحـرارة والوقـت شـتاءً! هـل كان شـهرًا أم فصـلًا كامـلًا مـن فصـول العـام؟ ثـم لمـاذا هـذا الهيـاج الجنـسيُّ غـير المحتمَـل الـذي ينتابـه فجـأة، وهـو الـذي أمـضى الشـهر يبـكي في صمـتٍ مـوتَ زوجتـه وابنتـه في الحـادث! قـال لـه الأطبـاء والممرضـات: «لقـد عُـدتَ إلى الحيـاة بمعجـزة طبيـة» وكان يـود لـو عـادت زوجتـه وابنتـه بمعجـزة إلهيـة.

إنـه يقـود السـيارة بجنـون الآن، ليـس سـعيدًا أبـدًا، لكنـه ذاهـب إلى هـدف بعيـد لا يـراه، يريـد أن يـدوس عليـه ويحطِّمه. إذًا هـل يلتقـط هـذا الشرطـيّ الـذي يقـف بعيـدًا وحيـدًا ظاهـرًا تحـت الضـوء؟

كانـت قدمـه قـد ارتفعـت عـن دوَّاسـة البنزيـن، وراحـت سرعـة السـيارة تتباطأ. إنـه يتوقـف الآن للشرطـي، ويفتـح لـه البـاب المقابـل. لقـد بـدا لـه حقًّـا شـخصًا مسـكينًا وسـط كل هـذا الفـراغ مـن الرمـال والضـوء. كان يعـرف أنـه لـن يجـد امـرأة أبـدًا عـلى هـذا الطريـق، لا، لـم يكـن قـد فكَّـر في ذلـك، وأن الهيـاج الجنسيَّ سـوف تخفُـت حِدَّتـه مـا إن يتحـدث مـع أحـد، حـتى لـو كان شرطيًّـا، لكـن مـا إن جلـس الشرطـي عـلى المقعـد المجـاور لـه حـتى بـدا لـه شـكله مزريًـا، ملابسـه ليسـت نظيفـة، ووجهـه متجهِّـم. وقبـل أن تسـتيقظ كراهيتـه للشرطـة، انفجـر الشرطـي في البـكاء. لقـد بـدا لـه أصغـر حجمًـا ممـا كان يـراه في الطريـق، وبـدا لـه يعـاني مـن أنيميـا مُزمنـة.

ارتبـك مـن هـذا البـكاء الـذي بـدأ في الحـال يُحـرِّك مشـاعره. كانـت سرعتـه في قيـادة السـيارة، هروبًـا أيضًـا مـن بـكاء يـكاد يغرقـه... هكـذا يكتشـف الآن.. هـل يمكـن أن تختلـط الرغبـة في الجنـس بالرغبـة في البـكاء؟

- اعذرني يا أستاذ، هذه الأغنية تؤثر فيَّ جدًّا.

كان راديـو السـيارة يبـث أغنيـة لفايـزة أحمـد. لـم يكـن قـد انتبـه إلى أنـه أشـعل الراديـو، ولا لجمـال الأغنيـة الـتي كان يحبهـا جـدًّا زمـان...

صمتـا للحظـاتٍ مسـح فيهـا الشرطـيُّ عينيـه براحتيـه. قـدَّم لـه منديـلًا ورقيًّـا مـن صنـدوق المناديـل الموضـوع أمامـه أعـلى تابلـوه السـيارة.

يا لـولي يا لـولي   فصوصك قالـوا لي

تـشوفـم جمالي   ولا تـوصـلـوا لي

- كانـت زوجـتي تغنيهـا لابنـتي كلمـا بكـت، كانـت دموعهـا الصغـيرة مثـل حبَّـات اللـولي يـا أسـتاذ...

لـم يعـرف بمـاذا يجيبـه. اسـتمر يقـود السـيارة عـلى مهـل. فكـر أن يطفـئ الراديـو، لكنـه اكتفـى بخفـض صوتـه.

بعد لحظات قال:

- أنـت رجـل بوليـس قـوي. رجـال البوليـس لا يبكـون، ثـم إن ابنتـك سـتكبر وتكـف عـن البـكاء.

عاد الشرطي يبكي بلا صوت، وقال:

- أقول لك كانت زوجتي تغنيها لابنتي.

- آه فهمت. هل تركتك زوجتك؟

- لا، ابنتي... ماتت الأسبوع الماضي.

أغمـض عينيـه لحظـات.. الشرطـي يفتـح لـه بـاب الحـزن عـلى ابنتـه وزوجتـه. هـل يطلـب منـه أن يسـكت! لـو بـكى سـتقع كارثـة وهـو يقـود السـيارة.

- لـم تكـن ابنـتي مريضـة. لـم يحـدث لهـا أي حـادث. كنـت أنـا وأمهـا نتفـرج عـلى التليفزيـون وجـاءت هي مـن غرفتهـا تقول أنهـا تخـاف أن تنـام. لمـاذا؟ قالـت «خايفـة يـا مامـا لمـا أنـام أمـوت» أخذتهـا أمهـا في حضنهـا وأعادتهـا إلى الحجـرة بعـد أن شـجعتها عـلى النـوم، أنامتهـا عـلى سريرهـا وعـادت، وأنـا كنـت

مندهشًا جدًّا من كلام البنت.

بعد السهرة ذهبت إلى حجرتها لأقبِّلها وهي نائمة. لقد تعودت أن أفعل ذلك. كانت تشعر بي

وتستيقظ وتتعلق في رقبتي يا أستاذ. وجدتها باردةً جدًّا، لم تستيقظ ولم تتعلق في رقبتي...

- أرجوك...

هتف بصوت مخنوق، وأشتعل وجهه وهو يقاوم البكاء...

- لا تلُمني يا أستاذ. لا يعرف ألم الآباء إلا الآباء.. هل ضايقتك؟

كانت هناك كافيتريا تظهر بعيدًا على الطريق. قرر التوقف عندها، لكنه تجاوزها، وراح يقود السيارة صامتًا، لقد أطفأ الراديو أيضًا، وطال الصمت، ولاحظ أنه يُسرع بالسيارة من جديد. وفاجأه الشرطي بسؤال:

- هل سبق لك أن عملت بالشرطة؟

- أنا؟ لا.

- الحمد لله. أنا أيضًا سوف أترك الشرطة. من اليوم لن أعود إلى العمل. ليس لأن ابنتي ماتت، لا، هذه أعمار. في النهاية دائمًا نقول ذلك. لكن الضابط الذي يرأسني ضربني أمس أمام زملائي.

كانت هناك كافيتريا أخرى قد ظهرت له فاتجه إليها. قال مجاهدًا أن يبتسم:

- ما رأيك أن تشرب كوبًا من الشاي معي وتنسى كل ما قلته؟

- كتر خيرك يا أستاذ.

في الكافيتريا شرب الشرطي كوب الشاي بسرعة وتركه ليذهب إلى دورة المياه. مضى وقت طويل ولم يعُد. لم يجد مفرًّا من مواصلة الطريق وحده. أشعل الراديو من جديد، وتوقف بالمؤشر على محطة الأغنيات. إنه يستمتع بالأغنيات الشجيّة الآن. هذه علامات صحة نفسيَّة حقيقيَّة. الحمد لله. ضرب المقود بيده. انطلق يا رجل. ها هو الهواء يهب عليك من الصحراء مُحمَّلًا بالبهجة والانتعاش. ها هو الطريق مفتوح على السماء «يا أولاد الكلب يا جزم ها أنذا راشد رشاد عاقلًا قويًّا، يا أولاد القحبة تريدون أن تطفشونا من بلادنا»!

و لم يكن يعرف لمن يتوجه بهذا الكلام. وحتى بعد أن نزل الليل على الصحراء، صار يسابق كل السيارات، رغم أن سيارته لم تعُد في قوتها قبل الحادث، إلا أنه لا يذكر حتى مَن قام بإصلاح السيارة بعد الحادث، وعلى آخر الطريق، في اللحظة التي كاد فيها أن يدخل طريق المدينة الذي سيُفضي به إلى وسطها، لاحظ أن السرعة لا تزال تزيد على المائة كيلو متر في الساعة، رفع قدمه عن دوَّاسة البنزين، لكن الوقت لم يكن كافيًا للإبطاء. اندفع شاب خارجًا من شارع جانبيٍّ يعبر الطريق فجأة، لتصطدم به السيارة صدمة قوية أحدثت صوتًا رجَّ الهواء، وطار الشخص لأكثر

مـن عـشرة أمتـار أمامـه.

......

- خذ الطريق الدائري بسرعة...

صـاح شـخص مـن الذيـن تجمعـوا حولـه وحـول السـيارة وحـول الضحيـة الـذي كان لا يـزال فيـه بعـض حيـاة...

- الطريـق الدائـري يصـل بـك إلى المستشـفى المركـزي بسرعة. انظـر إلى الطريـق النـازل إلى المدينـة، مزدحـم جـدًّا لـن تصـل قبـل أن يمـوت الشـاب...

كان هــو يقــف متخـاذلًا لا يقـدر عـلى فعـل شيء، لا يقـدر حـتى عـلى الـكلام. وحمـل النـاس الشـاب الضحيـة إلى المقعـد الخلفـي في سـيارته. دخــل الشــخص الــذي اقــترح الطريــق الدائـري وجلـس عـلى المقعـد الأمامـي، وراح هـو يقـود السـيارة ذاهـلًا غـير مُصـدِّق مـا جـرى.

كان المُصـاب لا يـزال يتنفـس، لكـن وجهـه بـدأ يـزداد إصفرارًا ويـزرق لدرجـة مُرعبـة، وكان هـو يـراه في المـرآة المُعلَّقـة أمامَه.

- نزيـف داخـلي مـع تحطُّـم عـدد كبـير مـن أضلاعـه، وخلـع في فخــذه الأيــسر، وكــسر في الركبتــين، وســحجات في الوجــه والجســد...

قال الشخص الذي صعد إلى السيارة معه.

سأله بصوت خافت:

- كيف عرفت؟

- عنـدي خـبرة، وحـادث مثـل هـذا لـن يـؤدي إلى أقـل مـن ذلـك.

لـم يـرد، راح يسـتمع إلى إرشـادات الرجـل حـتى وصلـت السـيارة إلى المستشـفى. دخـلا بالمُصـاب إلى قسـم الحـوادث بعـد أن حملـه تومرجيـان عـلى عربـة متحرِّكـة.

- الدكتور قادم حالًا..

قـال التومرجيـان وهمـا يمـدان كفَّيهمـا إليـه. وضـع في كل كـفٍّ خمسـة جنيهـات. لـم يكـن معـه عُملـة أقـل مـن ذلـك. اندهـش الرجـل الـذي يصحبـه وقـال:

- هكذا ستنفق كل ما معك. جنيه لكل تومرجي يكفي..

أخرج من جيبه ورقة فئة المائة جنيه وقدمها إليه..

- حاول من فضلك أن تجد فكّة، جنيهات إذا أمكن...

كانـا يقفـان وسـط العنـبر الكبـير، المصابـون حولهما مُسَـجّون فـوق العربـات ذات العجـلات، مُغَطّـون بمـلاءات بيضـاء قـذرة. هـذه مشرحـة وليـس قسـم اسـتقبال للحـوادث. قـال في نفسـه وهـو يـرى الصمـت مطبقًـا عـلى المـكان.

لقـد صـار وحـده الآن، إذ اختفـى الرجـل الـذي أخـذ المائـة جنيـه. نصـف سـاعة مضـت ولا أحـد، لكـن الممرضـة ظهـرت فشـبَّ عـلى قدميـه وتنهَّـد. لاحـظ وهـي تقـترب أنهـا ملفوفـة القـوام، وأن زيّهـا الأبيـض نظيـف، وأن فخذيهـا متماسـكان تحـت البلطلـون بشـكل مُثـير. قالـت وهـي تضحـك:

- معقول واحد حيّ في قسم الحوادث؟!

قال في إشفاق وهو يُشير إلى الضحية.

- أنا حضرت مع المُصاب، إنه ينزف بشكل خطير. أرجوكِ تستدعي الطبيب.

ردت ساخرةً:

- وكيف عرفت أنه ينزف؟ دكتور حضرتك؟!

وتركته وانصرفت.

- يا سستر. يا ست...

التفتت إليه وقالت بحِدَّة:

- وبعدين معاك؟ امسك أعصابك. لو كل مصاب الناس خافت عليه هكذا ماذا سيفعل عزرائيل! يقعد دون عمل!

قبل أن تصل دهشته إلى مداها لاحظ أن يدًا شديدة البياض والزُّرقة تظهر عروقها بشكل بارز تخرج من تحت ملاءة وتعبث في مؤخرتها فالتفتت إلى صاحب اليد مندهشةً، وقالت:

- الله! انت رجعت للدنيا؟

لكن صاحب اليد شخر شخرة قصيرة وتهدَّلت ذراعه بعدها، فقالت ساخرةً:

- يعني كنت ح تعيش بقلة الأدب! أديك قليت أدبك وبرضه مُت. جاتكم القرف.

واختفت بسرعة، بينما ظل هو واقفًا في حالة من البلاهة تكفي للدنيا كلها. انتبه إلى جاويش يقف أمامه يسأله:

- هل أنت الذي قتلت هذا الشاب؟

- أنا صدمته. هل مات؟

ابتسم الجاويش وقال:

- ألا ترى؟

نظر إلى وجه الشاب فوجد عينيه شاخصتين إلى الأبدية، وأن فمه مفتوح على الصمت..

- لا بُد من تحويلك إلى قسم الشرطة.

......

كان يقود السيارة وهو يفكر كيف صار قاتلًا، وكيف أنه ذاهب إلى قسم الشرطة يواجه تهمة حقيقية بالقتل! هل سبق له وهرب من هذه التهمة؟ هل حقًّا قتل من قبل؟ هي السيارة المشئومة التي انقلبت به هو وزوجته وابنته فماتتا. ها هو شخص ثالث يموت. ما كان عليه أبدًا أن يصلح السيارة. لو أنه تركها في مدينته الساحلية ووصل إلى العاصمة بالقطار! لن يركب هذه السيارة بعد اليوم. المهم الآن أن يخرج من هذه الحفرة التي تبدو بلا قرار...

- أنا لا أعرف إلى أيِّ نقطة بوليس أذهبُ!

- أنا سأرشدك...

لدهشته كانت كل المصابيح في الشوارع مُضاءَة، والمدينة

تبـدو في حالـة فـرح. فكَّـر لـو أن سـالم سـليمان هـو الـذي يكتـب عـن الحادثـة الآن لقـال «ظهـرت الشـوارع مُعتمـةً سـوداء في عينيـه مقبضـة»، لكنـه لـن يكتـب حكايتـه الآن. إنـه مُتعَـب.

- هل قسم الشرطة بعيد؟

- لا، لكني جائع. ألست جائعًا؟

اندهش من رغبة الجاويش في الأكل. وعاد الجاويش يقول:

- الدنيـا بـرد وعليـك أن تـأكل مـا اسـتطعت لأنـك سـتمضي الليلـة في التخشـيبة حـتى تُعـرَض عـلى النيابـة في الصبـاح ولـن تجـد طـول الليلـة شـيئًا تأكلـه.

كيـف حقًّـا صـار الجـو بـاردًا؟ لقـد كان دائمًـا بـاردًا. الحـرارة الـتي شـعر بهـا وهـو يغـادر مدينتـه السـاحلية كانـت شـيئًا طارئًـا، لـم تكـن حقيقيـة. واسـتمر الجاويـش يتكلـم..

- سـتُفرج عنـك النيابـة في الصبـاح بالضمـان الشـخصي، أو بكفالـة ماليـة بسـيطة، ثـم يتحـول الأمـر إلى قضيـة، وحـتى يحـين موعـد نظـر القضيـة في المحكمـة تكـون وصلـت إلى تسـوية مـع أهـل القتيـل، تدفـع لهـم تعويضًـا مناسـبًا مثـلًا.

- لـم يكـن في حاجـة إلى أن يسـمع شـيئًا الآن، النـوم هـو مـا يريـد ولا شيء آخـر. لكـن الجاويـش هتـف وهـو يحـرك أنفـه.

- الله! رائحة كباب. انتظر أرجوك...

كان هنـاك حـاتي قريـب توقَّـف أمامـه، وسرعـان مـا دخـلا إلى المحـل..

مـا إن أقبـل النـادل بالكبـاب حـتى راح الجاويـش يـأكل بسرعـة، بينمـا هـو اكتفـى بالفُرجـة عليـه. النـوم هـو مـا يريـده، هكـذا فكَّـر مـرةً ثانيـةً.

انتهـى الجاويـش مـن تنـاول الطعـام ثـم وقـف يصـلِّي عـلى الأرض في الركـن القريـب. أطـال الصـلاة أكـثر ممـا يتوقَّـع.

انتهى، وقال:

- لـم أصـلِّ المغـرب ولا العشـاء، صلَّيتُهمـا معًـا. الشـغل كتـير يـا أسـتاذ.

تقريبًـا لـم يكـن يسـمع. كاد ينـام وهمـا خارجَـين. لقـد أعطـى النـادل ورقـة فئـة الخمسـين جنيهًـا ولـم يفكِّـر في أن يأخـذ البـاقي، وحـين رأى الجاويـش هـو الـذي يأخـذ البـاقي ويضعـه في جيبـه لـم يعـترض.

وقال الجاويش:

- لـو تركـت بقشيشًـا في كل مـكان لـن تجـد ثمنًـا لطعامـك أو شرابـك، ثـم إنـك سـتدفع كثـيرًا في قسـم البوليـس... انتبـه.

تذكـر الرجـل الـذي ذهـب يفـك المائـة جنيـه، وكيـف قـال لـه ذلـك أيضًـا، وسـأله الجاويش:

- ألم يكن معك شاهد على الحادث؟

أجاب في يأس:

- كان معي، لكنه هرب!

- كان سيفيدك جدًّا. واضح أنه ابن جزمة جبان.

- يبدو ذلك..

قال بصوت خافت ومُتعَب. في قسم الشرطة سيجد أرضًا لينام فوقها، هذا هو المهم الآن.

أمام القسم سأله الجاويش من جديد:

- ألا تعرف أحدًا هنا؟

- أعرف.

- إذًا اتصل به بسرعة ليأتي ويأخذ من السيارة كل ما يمكن حلُّه، الراديو والكاسيت والبطارية، والعجلة الاحتياطية والطفاية والفوانيس وغيرها. أجل، قُل له أن يحضر ميكانيكي معه أو كهربائي سيارات. السيارة ستُصادَر حتى يتم فحصها في المرور، وخلال ذلك ستتم سرقة كل شيء/ صدقني..

لم يهتم؛ لقد كره السيارة!

......

قسم البوليس مبنى عريض قصير يتصدَّر الشارع. الشارع واسع لكنه ينتهي بالقسم يسدُّه تمامًا. على جانبي واجهة القسم شجرتان عاليتان يابستان، خلفهما نوافذ مُغلقة. على باب القسم يقف مُخبر له شارب كثّ طويل يسأل كل داخل عن وِجهته ويتحقَّق من شخصيته. ما إن رأى المخبر الجاويش حتى ابتسم، فقال الجاويش:

- وسَّع يا حمار.

ضحك المخبر وتراجع خطوةً، ثم مدَّ يده طالبًا

البقشيش. قال الجاويش:

- لا تُعطه أكثر من جنيه.

أعطاه ورقة فئة الخمسة جنيهات، تذكر الرجل الذي لم يعُد بالمائة جنيه مرةً اخرى. دخل مع الجاويش من البوابة الواسعة. سمع الجاويش يقول للمخبر:

- ليست لروح أمك كلها!

كانت دهشته كبيرة للغة التي يتحدث بها الجاويش لكنه أحس بشيء من القوة يدب في رُوحه، فأسرع وراء الجاويش الذي كان قد أسرع يسبقه.

الطُّرقة التي يُسرعان بها طويلة ضيقة، وسخة، نورها أصفر ضعيف، يهرول بها عساكر ومخبرون وناس عاديون ومجرمون مقيدون بالحديد، يسوقهم عساكر يُمسك كلٌّ منهم بخيزرانة سميكة أو جنزيرًا حديديًا كان في الأصل مُخصَّصًا للدرَّاجات. وصلا إلى باب غرفة المأمور الذي كان يقف أمامه جاويش آخر أصغر حجمًا.

تحدث الجاويشان لحظات، ثم قال الذي معه، وهو يُشير إلى زميله:

- سوف يُدخلك إلى المأمور.

ومدَّ له يده فأخرج من جيبه ورقة مالية فئة العشرة جنيهات أعطاها له. نظر اليها الجاويش وابتسم ثم هزَّ رأسه ومضى. كان الجاويش الآخر يسدّ الباب ويبتسم، فدس في يده خمسة جنيهات فاتسعت ابتسامة الجاويش

وأوسـع لـه طريقًـا للدخـول.

مـا إن دخـل حـتى جلـس عـلى أحـد المقعديـن الأماميـن لمكتـب المأمـور الـذي كان أحمـر الوجـه جـدًّا، ورأى جـوار الحائـط كنبـة طويلـة مـن الجلـد الجديـد اللامـع، ورأى أيضًـا الجاويـش الـذي كان بالبـاب يتقـدَّم بعـدَّة أوراق للمأمـور، ويـؤدي التحيـة ويتكلـم...

- محضر المتهم يا باشا.

نظـر المأمـور إلى المحـضر بـلا اكـتراث، ودقَّ التليفـون أمامـه فرفـع السـمَّاعة ولـم يـرد للحظـاتٍ، كان واضحًـا فيهـا أنـه يسـتمع إلى الطـرف الآخـر ويبتسـم، ثـم قـال:

- حاضر يا باشا، سنقوم باللازم.

أعاد السمَّاعة إلى مكانها وابتسم وقال.

- هل ضايقك أحد يا سالم بك؟

انفتحـت عينـاه عـلى اتسـاعهما. إنـه يناديـه بسـالم... يـا إلهـي! ولَمَّـا بـدا مرتبـكًا نظـر المأمـور إلى أوراق المحـضر مـرةً أخـرى بسرعـة وذكاء، ثـم قـال:

- رغـم أن المحـضر الـذي حُـرِّر لـك باسـم راشـد رشـاد. إذًا سـالم سـليمان هـو اسـم الشـهرة فقـط. هـذا طبيعـي في مهنتكـم. أليـس كذلـك؟

لـم يـرُد. إنـه حقًّـا يحمـل صـوت سـالم سـليمان الأنثـويّ منـذ عـاد مـن البلـدة الصحراويـة القريبـة. لقـد كانـت زوجتـه

مندهشـة جـدًّا مـن صوتـه الـذي تغـير فجـأةً، وكان كل مـن يسـمعه يندهـش مـن هـذا الصـوت الأنثـويّ، لكـن لا أحـد يعـرف أنـه صـوت سـالم سـليمان، ولا يعـرف أحـد بالطبـع كيـف انتقـل إليـه هـذا الصـوت. وسـمع المأمـور يقـول:

- أنـت طبعًـا وقَّعـت عـلى المحـضر باسـمك الموجـود في بطاقتـك العائليـة...

كاد يقـول لـه «الشـخصية» فهـو رغـم زواجـه لـم يغـيِّر بطاقتـه، لكـن كان مشـغولًا بالتفكـير في هـذا المحـضر كيـف ومـتى تـم تحريـره لـه، وهـل وقَّـع عليـه حقًّـا؟ محـضر تحقيـق حادثـة، أمـر عـادي لا يسـتحق التزويـر أو إجبـار أحـد عـلى التوقيـع عليـه، فحـوادث الطرق ليسـت عمـلًا سياسـيًّا، ولا يمكن إنكارهـا. إذًا لا بُـد أن أحـدًا حـرَّر لـه هـذا المحـضر واسـتجوبه مـن قبـل، ومـن المؤكـد أنـه هـو الـذي وقَّـع عليـه. ليـس مهمًّـا أن يعـرف مـتى ولا كيـف!

فالمأمـور يقـرأ اسـمه الحقيقـيّ راشـد رشـاد. لكـن لمـاذا نـاداه بسـالم سـليمان؟ هـل كان يعـرف صـوت سـالم؟ هـل قابلـه مـن قبـل؟ وإذا كان يعـرف فهـل نـسي صورتـه، أم أنـه هـو راشـد رشـاد، صـار الآن يحمـل وجـه سـالم سـليمان أيضًـا؟

هكـذا فكَّـر فجـأةً، فلقـد كانـت آخـر مـرة ينظـر فيهـا في المرآة صبـاحَ اليـوم. وقـال المأمـور بدماثةٍ:

- لا تقلـق. سـأوصي الضابـط النوبتجـي أن لا يُدخلـك إلى التخشـيبة، سـيخصص لـك مكانًـا إلى جـواره حـتى الصبـاح. أنـا للأسـف مضطـر للانـصراف بعـد قليـل.

أراد أن يسأله مَن الذي كان يتحدث إليه بالتليفون وقت دخوله. وهل للذي تحدَّث علاقة بأزمته، هل يتابعه أحد ويعرف أنه الآن متورط في مأساة؟

لكن دخلت امرأة، ملفوفة في ملاءة سرير كاروهات، وهي ترتعش من الغيظ، وخلفها رجل في نشوة المنتصر يمسك بذراع شاب عارٍ ملفوفٍ أيضًا، نصفه الأسفل في ملاءة ملونة، وخلفهم مخبر ضخم. نظر المأمور إليهم لحظةً وضع بعدها رأسه بين كفيه لحظاتٍ، ثم رفعها وقال للمخبر في نبرة يائسة:

- خدهم على الحجز. المرأة مع الشراميط، وعشيقها مع الخولات، أما هذا العرص فاتركوه قليلًا معنا...

بهدوء وقف المأمور، وفي الوقت الذي خرج فيه الآخرون دار هو خارجًا من خلف مكتبه واتجه صامتًا إلى الزوج الذي بان عليه الذعر وتراجع إلى الحائط. صوَّب إليه المأمور نظرةً ناريةً، وقال بغيظ مكتوم:

- طبعًا أنت فرحان لأنك قبضت على زوجتك في حالة تلبُّس.

لم يرُد الزوج. فجأةً صفعه المأمور صفعةً مدويةً ارتمى الرجل على إثرها في الركن البعيد، واحمرَّ وجهُ المأمور أكثر، وهو يقول له:

- فالح يا روح أمك.

ثم نادى الجاويش الذي يقف خارج الباب، فدخل

مُسرعًـا، فـصرخ فيــه:

- خـذ ابـن القحبـة هـذا، واعمـل لـه المحـضر الـذي يريـده، والبـاقي أنـت تعرفـه.

ظهـر عـلى الفـور ثلاثـة مخبريـن سـحبوا الـزوج مـن يديـه وقفـاه، وهـو مذعـور بينهـم مثـل أرنـب حقيقـيٍّ. نظـر المأمـور إليـه، وقـال:

- هـذه ثالـث مـرة يـا سـالم بـك، وفي كل مـرة يـأتي بزوجـة جديـدة. لمـا هـو مـش قـادر عـلى النسـوان ليـه يتجـوز؟!

فجـأةً اندفـع أحـد المخبريـن داخـلًا. أدَّى التحيـة بسرعـة، وهتـف:

- نعمل اللازم مع الزوج يا باشا؟

صرخ فيه المأمور:

- أمـال انـت بتشـتغل إيـه هنـا؟ عمالـين نعلـف أمـك ونديـك بـدلات ونـازل رشـوة مـن خلـق اللـه وجـاي تسـألني يـا ابـن.....

كان انفعـال السـيد المأمـور إلى غايتـه، حـتى بـدا سـيُصاب بأزمـة قلبيـة، لكنـه سرعـان مـا انبسـطت أسـاريره، وقـال:

- شـغلانة تقـصّر العُمـر يـا سـالم بـك. لا تؤاخـذني. أنـا واللـه لسـت كمـا رأيتـني الآن.. أنـا بـني آدم مثلـك، لكـني لـم أعُـد أسـتطيع التحمُّـل.

في الحقيقـة لـم يكـن يسـمع، بـل تقريبًـا لـم يكـن يـراه. سـاد صمـت طويـل دخـل خلالـه الضابـط النوبتجـي الـذي صافـح

المأمـور. كان ضابطًـا صغـيرًا برتبـة صغـيرة. خـرج الاثنـان معًـا لحظـات ظـل هـو فيهـا جالسًـا لا يُـدرك أنـه جالـس، ثـم عـاد الرائـد مبتسـمًا، وقـال لـه:

- تعال معي.

خرجـا. مشـيا في الطرقـة الطويلـة مـن جديـد. أسـلمتهُما إلى طرقـة جانبيـة أطـول، نورهـا أضعـف. لقد مـيّز الآن أن في وسـط القسـم فنـاءً كبـيرًا تـدور حولـه الطرقـة. لكـن الفنـاء كان خاليًـا ومُظلمًـا. لـم يكـن فيـه ثمـة شيء غـير مقعـد وحيـد في منتصفـه كان يبـدو شـاذًّا بحـق وسـط الظـلام والفـراغ.

كان الضابـط الشــاب يســبقه مُسرعًــا، وخلفهمــا عــدد مــن المخبريـن والعسـاكر. اتضـح لـه وهـو يتلفَّـت يمينًـا ويسـارًا أن القسـم كبـير حقًّـا، ومكـوَّن مـن عِـدة أدوار، ولأنـه كان يـرى بـين الحـين والحـين فتحـات جانبيـة بهـا سـلالم هابطـة أدرك أن هنـاك أكـثر مـن بـدروم أيضًـا. اقـترب منـه أحـد المخبريـن هامسًـا..

-ألن تأكل؟

و لم يُمهله وقتًا ليُجيب، أردف:

- لازم تاكل... جوارنا محل كباب محترم.

أخـرج مـن جيبـه عشريـن جنيهًـا، فقـال المخـبر هامسًـا مـن جديـد:

- نصف كيلو كباب؟ أنت محتاج اتنين كيلو على الأقل.

وبسرعة أعاد إليه العشرين جنيهًا، فأخرج بدوره ورقة ظهر له أنها فئة المائة جنيه، وقبل أن يتراجع خطفها المُخبر بمهارة، وتوقَّف عن المشي معهم!

في نهاية الطرقة كانت هناك غرفة صغيرة دخلها الضابط الشاب، وفوجئ هو بأحد المخبرين يُمسكه من ذراعه ويأمره بالتوقف قليلًا.

تناهت إليه بعد لحظة أصوات ضرب وشتائم وجري، وراح المخبر والذين معه يكتمون ضحكاتهم، ثم خرج رجل عاري الصدر جاريًا وخلفه خرج شاب مذعور يرتدي جلبابًا قذرًا

و يجري أيضًا. بعدها خرج الضابط ثائرًا في وجه العساكر والمخبرين ويصرخ:

- في مكتبي يا أولاد الوسخة! من الذي سمح لهما بالدخول إلى مكتبي؟ مَن ابن القحبة الذي أخرجهما من التخشيبة؟!

لم يفهم بالضبط ماذا كان يحدث بحجرة الضابط، لكنه جلس أمام الضابط الشاب الذي بدا مهمومًا جدًّا صامتًا مُغمضَ العينين ينفثُ غيظه بهدوء. لم يدخل معهما أحد من المخبرين أو العساكر، لاحظ ذلك واندهش له.

ونظر إليه الضابط بهدوء وسأله:

- ما هو عمل حضرتك بالضبط؟

- كاتب.

- ماذا تقصد بكاتب؟

- أديب.

- آه. فهمت، في أي صحيفة حضرتك؟

- في كل الصحف.

تأمله الضابط بدقة، بدا مندهشًا جدًّا من إجاباته التي لم يستوعبها، لذلك أردف؛ علَّه يوضح الأمر:

- هناك كتَّاب يعملون بالصحف، وهناك كتَّاب أحرار، هذا ما أقصده.

ابتسم الضابط، وقال:

- إذًا أنت من الأحرار يا علي!

ابتسم هو بدوره، فالضابط يتبسَّط معه، ويُردد العبارة الشهيرة التي قالها أحد الضباط الأحرار لعلي بطل رواية «رد قلبي» وهو يضمه إلى تنظيمهم السريّ الذي يخطط لثورة يوليو، وهي العبارة التي شاعت في كل البلاد العربية بعد أن تم تحويل الرواية لفيلم كبير وشهير.. يستطيع هو بدوره أن يتبسَّط مع الضابط الذي بدا له لطيفًا بحق. ابتسم وقال:

- مع ملاحظة أنني لا علي ولا من الضباط الأحرار.

- طبعًا طبعًا. قلت لي ما اسم حضرتك؟

تردد لحظةً... راشد رشاد أم سالم سليمان؟ اختار الأخير الذي ناداه به المأمور.

- سالم سليمان.

- رغم أن اسمك المدوَّن أمامي راشد رشاد. حضرتك تكذب! أنت تظنني لا أقرأ؟

قال الضابط الجملة الأخيرة بصوت أعلى، بدا غاضبًا إلى حدٍّ ما، وفتح أحد أدراج مكتبه وأخرج صفحةً من جرنال قديم وضعها أمام عينيه، وقال بانفعال:

- هذه هي صورة سالم سليمان، وأنا منذ صباي من كبار المعجبين به. يعني حضرتك كذَّاب!

نزل عليهما صمتٌ ظلَّ فيه الضابط الشاب ينظر إليه بتحدٍّ مُخيفٍ. لم يعرف ماذا يمكن أن يفعل أو يقول. لقداستخدم الاسم الذي ناداه به المأمور، متصورًا أنه ما دام المأمور قد فعل ذلك فسيفعله الجميع. وكان مندهشًا كيف أنه لا يحمل من سالم إلا صوته، وتعرف عليه المأمور من صورته، أو من المكالمة التليفونية المجهولة، وهو يتعجَّب الآن من الضابط الذي لا يرى فيه أي شبه بسالم سليمان، ولا يدرك أنه يحمل صوته، وخطر على باله كيف اختفى «فرح» منذ خرج من المستشفى. ذلك الكائن الصغير الذي لا يفارقه منذ اختفى سالم، والذي لا يراه إلا هو. ذلك الشيطان أو الملاك، فهو لا يعرف، ولم يعرف قط.

كان الضابط لا يزال يُمعن النظر إليه، ثم صرخ:

- انت يا حمار ياللي على الباب.

انتفض من مكانه في الوقت الذي قفز فيه إلى وسط

الحجـرة أحـد المخبريـن، أدَّى التحيـة عـلى عَجَـلٍ.

- خذ البيه الكذَّاب إلى التخشيبة.

......

- شم في جزمتك يا أخ..

كان الرجـل الـذي يبـدو عتيـدًا في الإجـرام قـد خلـع جزمتـه بالفعـل ووضعهـا أمـام أنفـه. لـم يجـد هـو أيضًـا غـير هـذا الحـل!

كان هنـاك شـاب يجلـس في ركـن بعيـد مـن التخشـيبة يتـبرَّز عـلى أرضيتهـا.. نظـر هـو إليـه غـير مُصـدِّقٍ فقـال رجـل آخـر:

- الشـخَّة في دورة الميـاه بخمسـة جنيـه، و«التسـييرة» بجنيـه، والـلي مـا معاهـوش فلـوس يركـن هنـا.

وأشار إلى الحائط الذي يتبرَّز أمامه الشاب.

في الحقيقـة كانـت التخشـيبة واسـعة بمـا يكفـي لذلـك، ولـم يكـن مُلحقًـا بهـا دورة ميـاه، وكان هنـاك بـراز رائحتـه لا تُطـاق، ناشـف مـن أيـام سـابقة.

و قال رجل ثالث، مشيرًا إلى الشاب الذي يتبرز.

- أصلـه ابـن وسـخة معفـن، لا يسـتطيع التحكُّـم في نفسـه حـتى الصبـاح.

ثـم خاطـب الشـاب الـذي كان يبتسـم متلـذذًا وهـو لا يـزال يتـبرز...

- ربنا يقرف أمك.

هـل ممكـن أن تنجـاب عنـه بعـد قليـل هـذه الرائحـة! تصعد وتخـرج مـن النافـذة المسـتطيلة العاليـة القريبـة مـن السـقف، هـذه العـشر سـنتيمترات الـتي تفصـل بـين الحائـط والسـقف والـتي يعتبرونهـا نافـذة؟

انفتـح بـاب التخشـيبة فأصـدر صوتًـا ودخـل المخـبر حامـلًا الكبـاب تسـبقه رائحتـه. كيـف وجـدت رائحـة الكبـاب طريقًـا لهـا وسـط هـذا القـرف؟

هتـف المتهمـون «كبـاب» ونهـض الشـاب عـن التـبرز بسرعـة رافعًـا بنطلونـه إلى وسـطه. هتـف المخـبر محـذِّرًا:

-كل واحد في مكانه... هذا أكل الأستاذ.

وتقـدَّم ناحيتـه يناولـه اللفـة الورقيـة الكبـيرة الـتي كانـت سـاخنة، وقـال:

- اتنـين كيلـو كبـاب وعيـش وسـلاطة وطحينـة، وهـذا هـو البـاقي.

وناوله ما تبقى من النقود وخرج مُسرعًا.

لاحـظ وهـو يضـع النقـود في جيبـه أن نظـرات الجميـع مُعلَّقـة بالكبـاب. فـرد الورقـة أمامهـم فـوق الأرض. أقبلـوا عليهـا بسرعـة. قـال أحدهـم:

- هـذا بالـكاد كيلـو واحـد، لكـن لا بـأس، ويتهمونـا بالسرقـة! المهـم أنـه كبـاب وليـس حجـارة...

انكبـوا يأكلـون.، كانـوا أكـثر مـن عـشرة، في لحظـة اختفـى كل شيء. كلٌّ منهـم طـال قطعـة واحـدة بالـكاد. لـم يـأكل معهـم. جلـس في ركـن بعيـد صامتًـا.

بـدأ يسـمع أصواتًـا مُبهمـة، مزيجًـا مـن صراخ وضرب. بـدا أنـه قـد شرد عنهـم بذهنـه تمامًـا، اقـترب منـه الـذي يبـدو أكثرهـم إجرامًـا، وهمس:

- مالك يا أستاذ؟

- لا شيء. فقط أسمع أصواتًا غريبة.

- هذا من البدروم.

- بدروم؟

- أجل. تحتنا مباشرةً. سلخانة. ضرب وتعذيب على أصله.

فكَّـر كيـف حقًّـا يخـترق الصـوت سـقف البـدروم الـذي هـو أرضيـة التخشـيبة ويصـل إليهـم. لا بُـد أن السـقف رقيـق جـدًا، أو أن الـضرب رهيـب جـدًّا!

وأضاف الرجل:

- في البــدروم فلكــة وعروســة وكرابيــج وعصيــان خــيزران وزان وكومــبروسر للنفــخ. كل الإمكانيــات في خدمــة الشــعب في الحقيقــة.

ضحكـوا جميعًـا في صخـب، لكـن أصـوات هـرج أقبلـت مـن شرَّاعـة بـاب التخشـيبة، فقـال أحدهـم:

- قم واتفرج، تعال، لا تخف...

وسحبه من ذراعه، ومشى به ناحية شرّاعة الباب.

نظر من الشراعة الصغيرة ليرى شابًّا لا يتجاوز العشرين حوله عدد من المخبرين والعساكر، يضربونه بالعصيّ الزان، وبأيديهم وأرجلهم وهو يتقلَّب بينهم مثل كرة على الأرض، ومع كل ضربة ينبثق دمٌ من جسده العاري، حيث بدت ثيابه ممزَّقة في كل مكان. لم يبق للشاب غير السروال، لكن في لحظاتٍ مزقوا السروال، ثم شبحوه على سور الطرقة المنخفض الذي يحيط بالفناء، بحيث يكون ظهره إليهم، وأدخلوا بهدوء فيه خيزرانةً، فصرخ الشاب من النار التي اشتعلت داخله، وتهدَّلت ذراعاه، وتركوه يسقط على الأرض وتهمد حركته. كان هو بدوره قد سقط على أرض التخشيبة وجلس واضعًا رأسه بين يديه مُغمضًا عينيه.

أقبلوا نحوَه في دهشةٍ، وسأله أحدهم:

- ماذا جرى يا أستاذ؟

أجاب بصوت ضائع.

- مات!

- من الذي مات؟

- الشاب الذي كانوا يضربونه.

ضحكوا، وقال أحدهم:

- أنت قلبك قلب عصفورة يا أستاذ! ثم إن الشاب لا بُد قد أخذ برشامة تجعله لا يشعر بأيّ شيء.

وبعد لحظة...

- أنت بتشتغل إيه!

لم يرُد، فأخذ متهم آخر بيده ومشى به إلى ركن بعيد، وقال:

- نلعب كوتشينة، ما رأيكم؟

بسرعة انقسموا إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة من أربعة أشخاص. كان هناك شخص زائد يجب أن يظل يتفرج عليهم، اختار هو أن يكون المتفرِّج، وقبل أن يبدأوا اللعب قال أحدهم:

- وحتى لو مات، ليست هناك مشكلة، من فوق السطح يقع! الطبيب الشرعي سيجد في بطنه حبوب مخدِّرة تكفي لقتل حصان. انتحر...

انخرط هو في بكاء مرير، وهم ينظرون إليه في حيرة حقيقية.

......

كان الوقت قد اقترب من الفجر. بعضهم نام وصار له شخير مزعج، وانفتح باب التخشيبة ودخل أحد المخبرين يسوق أمامه عشيق المرأة الذي سبق ورآه راشد في حجرة المأمور من قبل. كان الشاب ملفوفًا في ملاءته التي صارت غير منتظمة حوله، زائغ النظرات ذاهلًا، على وجهه علامات رعب كبير. بدا وقد فقد كثيرًا من وزنه، بدا شاحبًا بحق، رغم أن راشد رآه فقط منذ ساعات قليلة. قال المخبر وهو

يشـير إلى العشـيق:

- أنتـم آخـر تخشـيبة في القسـم، وكمـا فعـل المتهمـون في التخشـيبتين الأخريـين أريدكـم أن تفعلـوا حـتى لا يخـون رجـلًا في امرأتـه مـرةً أخـرى... هـذا الجبـان النجـس.

وبعد لحظة صمت...

- قـم يـا ابـن الشرموطـة أنـت وهـو وهـو، اقفـوا طابـور وصحّـوا ولاد الجزمـة النائمـين. سـأقف عنـد البـاب، وديـني وأيمـاني مـن يتأخـر منكـم سـوف أضعـه مكانـه.

قـام اثنـان منهـم وتلـكأ الباقـون، لكنهـم قامـوا متبرِّمـين. اقـترب الاثنـان مـن العشـيق الـذي اعترتـه البلاهـة فجـأةً وقـال عـلى الفـور:

- حـاضر، حـاضر. بـس بالراحـة والنـبي. خـلاص، خـلاص. مـا حـدّش يضربـني. قولـوا لي بـس عايزيـن إيـه، أفـكّ الملايـة؟ أهـه.

وتـرك المـلاءة تسـقط عنـه، بينمـا أشـاح راشـد رشـاد بعينيـه عـن الموقـف كلـه. كان يـرى ويسـمع ويرتعـش مـع كل كلمـة يقولهـا العشـيق.

فاجأه المخبر:

- قبـل أن أنـسى. أنـت يـا راشـد بـك، يـا سـيادة الأديـب، تعـال معـي، أنـت دخلـت هنـا غلـط. البيـه نـسي أن هنـاك توصيـة عليـك.

عـلى الفـور نهـض وأقبـل نحـوه مُسرعًـا، قبـل أن يسـمح لـه

المخبر بالخروج كان قد عبر الباب. قال المخبر للمتهمين:

- مسكين... مثقف!

وخرج مُغلقًا باب التخشيبة خلفَه ليجده واقفًا في الطرقة يرتعش، كان الجو باردًا حقًّا، والطرقة بدت لا نهائيةً من طرفيها، رغم أنها تدور حول الفناء المُظلم الذي لا يعلوه سقف. وكانت ستائر الفجر تجاهد لتغمر الدنيا بنورها، ووسط الفناء، على المقعد الذي اندهش لوجوده من قبل، كان الضابط الشاب يجلس ويناديه:

- تعال هنا يا أستاذ سالم.

من فتحة في سور الطرقة انحرف إليه.

- لا تلُمني، الفوضى أنستني توصية الباشا المأمور، لا تخف. اجلس هنا جواري.

كان هناك مقعد آخر قد أُضيف. جلس. ربت الضابط على كتفه، وقال للمخبر:

- هات له شاي بسرعة.

لم يكن يريد أن يشرب أي شيء، ولا أن يأكل. فقط يريد أن تشتد الشمس ليركب العربة الذاهبة إلى النيابة لينتهي من عثرته. وفيما يبدو أن الشمس استجابت له فازداد النور، وسمع صوصوة عصافير تخرج من أعشاشها أعلى القسم، ثم تُقبل من كل ناحية لتصنع مظلَّة فوق رأس الضابط الشاب، الذي قال مبتسمًا:

- لا تندهـش. سـترى مـا لـم يـره أي كاتـب في الدنيـا. خـبرة تفيـدك في الكتابـة. ألا تحتـاج إلى خـبرة جديـدة؟

لـم يـرد. كانـت إحـدى العصافـير قـد حاولـت الابتعـاد عـن المظلـة فانطلقـت حبـات رش مـن بنـادق خفيـة أعـلى سـطح القسـم فعـادت العصفـورة بسرعـة -تـصرخ- إلى زملائهـا فـوق رأس الضابـط، وبـدأت عنابـر بعيـدة تنفتـح ليخـرج منهـا عـدد كبـير مـن النسـاء العاريـات يتقدمـنَ في طابـور أمـام الضابـط وأمامـه.

نظـر الضابـط إلى راشـد رشـاد الـذي بـدا مذهـولًا للغايـة، وقـال:

- شفت شغلنا كم هو صعب؟

ولاحظ أنه شاحب جدًّا، فقال:

- لا تخف يا سالم بك...

تنهـد مرتاحًـا. هـا هـو يقـول لـه سـالم بعـد أن قـال لـه مـن قبـل راشـد. سـالم أم راشـد لا يهـم الآن! فلينـسَ ذلـك كلـه وليناديـه الضابـط بمـا يشـاء مـن الأسـماء. حـتى لـو نـاداه بناهـد. هـو في الحقيقـة يشـعر وكأنـه صـار شـخصًا آخـر، فـلا هـو سـالم ولا هـو راشـد، هـو شيء لـم يتعقَّلـه بعـد، لـم يميِّزه بالضبـط. وفوجـئ بالضابـط يمـد ذراعـه إلى أعـلى ويمسـك بعصفـورة مـن بـين مظلـة العصافـير ويضعهـا بسرعـة في فمـه ويأكلهـا عـلى مهـل.

كان طابـور النسـاء قـد اختفـى، وفُتِحَـت عنابـر أخـرى خـرج

منهـا رجـال وشـباب عـراة انتظمـوا في طابـور واحـد، كانـت بطونهـم منفوخـة ترتفـع أمامهـم إلى حـوالى مـتر، وفي إسـت كلٍّ منهـم جـزء ظاهـر صغـير مـن خرطـوم أحمـر مسـدود بقطـن، كذلـك كانـت أنوفهـم وآذانهـم وأفواههـم محشـوّة بالقطـن بحيـث لا تكـون هنـاك أي فرصـة للهـواء أن يتسـرَّب.

مشـوا مُعذَّبـين خلـف بعضهـم، وراح المخـبر الـذي يمـشي جوارهـم يـنزع عـن كل شـخص يصـل إلى الضابـط الخرطـوم الأحمـر الظاهـر مـن إسـته، فيخـرج الهـواء شـديدًا إلى الخلـف لـه صـوت فيندفـع الشـخص إلى الأمـام مهـرولًا بسرعـة كبـيرة، فـلا يـكاد يسـيطر عـلى نفسـه حـتى يسـقط في آخـر الفنـاء وقـد سـيطرعليه ارتعـاش عظيـم وتشـنُّج أعظـم. وهكـذا واحـدًا وراء الآخـر، حـتى إن بعضهـم مـن شـدة الهـواء الـذي اندفـع مـن دُبـره كاد يطـير في الهـواء ويتجـاوز بنـاء القسـم. لقـد رأى راشـد أجنحـةً تنبـت لبعضهـم وتحملـه إلى السـماء... ثـم انطلقـت حبَّـات الـرش مـن البنـادق أعـلى القسـم فعـرف أن عصفـورةً أرادت الهـرب، ورفـع بـصره ليراهـا تعـود إلى المظلـة بالفعـل، ترفـرف بجناحيهـا وتصوصـو بقـوة، ومـد الضابـط يـده، أمسـك بهـا وهـو جالـس ووضعهـا في فمـه.

حـين ظهـر عسـكريٌّ حامـلًا لوحًـا خشـبيًّا كان الرجـال المنفوخـون قـد سـكنت حركتهـم عـلى الأرض وكفـت تشـنجاتهم، وبـدأ المخـبرون يجرّونهـم إلى غـرف أخـرى. ثـم ظهـر مخـبر يدفـع أمامـه متهمًـا ضخـم البنيـان وقـف أمـام الضابـط مرعوبًـا، ولا يعـرف راشـد كيـف اسـتطاع المخـبر بحركـة سريعـة أن يُسـقط المتهـم الضخـم عـلى الأرض.

- نم على جنبك يا بن الوسخة..

صرخ فيه المخبر فنام المتهم على جانبه، وكانت الشمس قد بدأت تصعد فوق الدنيا أكثر ويشتد نورها، ووضع العسكري اللوح الخشبي الطويل جوار المتهم على الأرض.

- نام على جنبك فوق اللوح يا بن الشرموطة.

ونام المتهم على جانبه فوق اللوح، فجلس المخبر على وسطه ووضع في أذنه مسمارًا وقال للعسكري «دقّ».

كانت مع العسكري مطرقة صغيرة، انحنى يدق بها على المسمار، والمتهم يحاول التخلُّص ولا يستطيع من المخبر البارك فوق وسطه، والذى يضغط على جانبه وذراعه بيديه. صار المتهم يصرخ وراشد أشاح بوجهه ناحية العصافير فوجدها ترتعش، والعسكري راح يدق المسمار ويقول للمتهم «علشان تبقى ماتسمعش كلام الباشا يا خول». والمتهم يصرخ «خلاص حرّمت. ح أسمع الكلام» ثم راح يصرخ فقط، ثم صارت أنفاسه شخيرًا متقطعًا، أنفاسًا خافتةً، ثم انقطعت، وصار لوصول المسمار إلى اللوح الخشبيّ من الناحية الأخرى صوت، والعسكري لا يزال يدقّ، وعاد راشد ببصره إلى الأرض ليرى المتهم قد صار هو واللوح الخشبيّ شيئًا واحدًا، رفس مرتين بذراعيه وقدميه، ثم حمله المخبر والعسكري واختفيا به وباللوح معه!

أراد أن يتوسل للضابط أن يتركه يغادر المكان، رأى الضابط يبتسم وهو يمسك بعصفورة ثالثة ويقول:

- خلاص... آخر عصفورة.

وكان هو قد سقط مغشيًّا عليه!

- هيا يا أستاذ إلى النيابة...

استيقظ فوجد نفسه غارقًا في العرق، تلفَّت حوله وسرعانَ ما تذكَّر المكان، إنها حجرة المأمور، لقد نقلوه لينام على الكنبة الجلدية الجديدة. لم يكن المأمور قد أقبل بعد. لم يكن ثمة أحد حوله غير الجاويش الذي اصطحبه أمس من المستشفى إلى القسم. خرج ذاهلًا مع الجاويش يزدحم ذهنه برؤى غريبة لا يكاد يميِّزها. هل كان ما رآه صحيحًا! مشيا في الطرقة الطويلة التي رآها خاليةً تمامًا. أسلمتهما الطرقة إلى الباب الخارجي. رأى المخبر ذا الشارب الكثّ.

- صباح الخير يا أستاذ. تصدق بالله أنت أول متهم ينام في غرفة المأمور.

هكذا قال المخبر وهو يضع يده في جيبي جلبابه، حتى ظنَّه سيُعطيه شيئًا، لكنه أخرج يده بسرعة ومدها إليه مفتوحةً خاليةً. وضع فيها خمسة جنيهات وكان يرتعش من البرد.

لم تكن العربة «البوكس» التي ستُقِلُّه إلى النيابة بعيدةً عن الباب. صعد سُلَّمها الخلفيَّ ومعه الجاويش الذي وضع القيد الحديدي في يديهما معًا.كان كل متهم مقيدًا مع زميل له. يعرفهم ويعرفونه، يبتسمون له، لكنه لا يبتسم. وقال

الجاويـش لـه هامسًـا:

- لمكانتـك ووظيفتـك فضَّلـت أن تشـاركني في القيـد، ولا تضـع يـدك مـع مجـرم آخر.

ثـم مـدَّ لـه يـده الثانيـة مفتوحـةً، فوضـع فيهـا مـا تبقَّـى معـه مـن نقـود صغـيرة، ومشـت العربـة بسرعـة تخـترق شـوارع المدينـة الـتي تسـتيقظ حولـه. «هـل كانـت حقًّـا تسـتيقظ؟» هكـذا تسـاءل في نفسـه.

لقـد خـرج مـن النيابـة بالضمـان الشـخصيّ مباشرةً إلى شـقته. قـال لـه الجاويـش أن هـذه حالـة نـادرة، فالعـادة أن يعـود المتهـم إلى القسـم مـن جديـد، ومنـه تبـدأ إجـراءات الإفـراج الـتي قـد تسـتغرق يومًـا كامـلًا.

وقال الجاويش أيضًا:

- واضح أنك إنسان طيب، لذلك لم يتخلّ الله عنك.

ومـدَّ لـه يـدَه مـن جديـد، لكنـه لـم يلتفـت إليهـا. ليـس لأنـه لـم يعُـد يملـك أيّ نقـود صغـيرة، لكـن لأنـه في الحقيقـة لـم يكـن يراهـا هـذه المـرة. وقبـل أن يتركـه الجاويـش وقـف يقـول لـه:

- صوتـك يـا أسـتاذ تغـيَّر جـدًّا وأنت تـرد عـلى أسـئلة المحقِّق. كنـتَ تتكلَّـم بصـوت حريمـي! وكيـل النيابـة كان مذهـولًا ولا يصدِّق، وليتـكَ كنـتَ تتكلَّـم بصـوت حريمي فقـط، بـل أيضًـا كنـت تـؤدِّي حـركات بيديـك وحاجبيـك وشـفتيك مثـل النسـاء تمامًـا. ولا تؤاخـذني يـا أسـتاذ كنـت تتصرَّف ليـس مثـل الحريـم

العادي أيضـًا.

......

في شـقته الصغـيرة كان أول مـا فعلـه هـو أن نظـر إلى المـرآة. إنهـا الشـقة الـتي لـم يدخلهـا منـذ عـام، والـتي كان يزمـع أن يجعلهـا مكتبًـا يبـدأ منـه حياتـه الجديـدة في العاصمـة. لـم ينتبـه إلى قـذارة الشـقة مـن حولـه ورائحـة العـام المنـصرم، كان يسـتطيع أن يـرى نفسـه رغـم الغبـار الـذي عـلا سـطح المـرآة. كان يـودّ بالفعـل أن يـرى نفسـه الآن، رأى فـوق رأسـه شـعرًا كثيفًـا يـنزل حـتى كتفيـه، وعـلى شـفتيه رأى أحمـر شـفاه ثقيـلًا، ورأى حاجبيـه مُزجَّجـين باللـون الأسـود، وطالـت أهدابُه، ورأى أعـلى الجفنـين مصبوغًـا باللـون الأزرق، لـون بدلتـه. خلـع الجاكـت بسرعـة وخلـع القميـص فوجـد تحتـه كومبـين ناعـم بمـبي! خلـع البنطلـون فوجـد تحـت الكومبـين كيلـوت حريمـي صغـير جـدًّا ناعـم شـديد الاحمـرار!



- 2 -

لم يكن غير «فرح» ينقذه من الحمى التي شملته أسبوعًا كاملًا. كان يجهز الكمادات بالماء المثلَّج ويضعها على رأسه وجبهته.

كانت كل أفكاره السابقة عن فرح أنه ليس إلا تجليًا شيطانيًّا لازمَه منذ فكَّر في الخروج من الصحراء العربية. إنه الجريمة التي ارتكبها، صارت تُلازمه كظلِّه، رغم أنه ليس متأكِّدًا أنه حقًّا ارتكب جريمةً من أيٍّ نوع.

كان كثيرًا ما يبدو قادرًا على تقبُّل فرح، والفرح به أحيانًا، واعتباره صديقًا من نوع عجيب، لكنه قبل أن تنقلب به السيارة ومعه زوجته وابنته كان قد رأى فرح يمشي أمام زجاج السيارة في الهواء ويضحك. لقد شغله عن الطريق فوقعت الحادثة التي بعدها اختفى فرح. وقد ظهر له هذا الأسبوع صديقًا لم يتركه لحظة، نزع عنه ثيابه

النسائية وأعاد إليه ملابسه الرجالية، وكل ما فعله هو أن ضحك وهلل وصفَّق بيديه الصغيرتين ثم سرعان ما بدا مُشفقًا عليه مُبديًا كثيرًا من الألم من أجله، وها هو يقف أمام قدميه سعيدًا وهو يراه يقف سليمًا قويًّا يرتدي بدلةً شتويةً جديدةً.

كان فرح قد حلق له ذقنه وعانته وهو مُمدَّد على السرير، وقال له، وهو يلعب بين فخذيه: «صاحبك في مكانه فلماذا كنت ترتدي ملابس النساء الداخلية وتضع مكياجها؟» وابتسم راشد وهو على يقين من خبث فرح الذي لا شكَّ يعرف ما جرى في قسم البوليس.

وسمع فرح يسأله أين ستذهب الآن؟ فأجاب: «أين يمكن أن أذهب يا فرح إلَّا إلى البار الذي لم يغِب عن ذاكرتي طيلة اغترابي؟ بار برج العذراء الذي انفرد بهذا الاسم غير المتكرر في البارات».

......

اتسعت عيناه وهو يرى التاكسي يتحرك به بلا سائق...

- إيه يا أستاذ! مساء الخير.

- ....

- حضرتك تضحك وتكلِّم نفسك؟!

السائق موجود ويتكلم إذًا، لكنه لم يرد. رأى الرعب قد جمَّد السائق خلف المقود.

المدينـة حولهمـا صامتـة، والوقـت ليـل، ظـلام كثـير وبـرد ثقيـل. زاد السـائق مـن سرعـة سـيارته، فالشـوارع خاليـة. «لعلـه يقـول أنـني مجـرم أو مجنـون. هـل يبـدو عـلى وجهـي عزمـي عـلى شيء! سـأغتصب كل نسـاء هـذه المدينـة. سـأترك في أحشـاء كلٍّ منهـنَّ طفـلًا، شـيطانًا مـن الشـياطين الـتي تنحبـس في صدري وتجـري في رأسي. سـيعرف الجميـع أنـني رجـل... ثـم أبيـع شـقتي الـتي سـأحوِّلها إلى مكتـب وأختفـي».

ربمـا لا يبيعهـا، يـضرم فيهـا النـار. إنـه يراهـا تحـترق أمامـه. إن عينيـه تتسـعان للغايـة، ينظـر إلى الميـدان الكبـير الـذي يخترقـه التاكـسي الآن عـلى مهـل، رغـم خلـوِّه. عـلى محيـط الميـدان أعمـدة إنـارة مُعلَّـق بهـا رجـال مشـنوقون. إنـه يقـف تحـت أرجلهـم يتطلَّـع إلى وجوههـم الـتي شـاهت مـن الـبرد والريـح...

- أنزلني من فضلك.

- الحمد لله.

قال السائق ذلك، فسأله:

- ماذا تقول؟

- لا شيء يا أستاذ.

نـزل والسـائق يرتجـف. مـد إليـه يـده بالأجـرة، لكـن السـائق فـرَّ بالسـيارة قاطعًـا الميـدان الكبـير بسرعـة رهيبـة، داخـلًا في الاتجـاه الخاطـئ للشـارع، بينمـا ظـلَّ هـو واقفًـا.

البـار خلفـه تمامًـا. إنـه لا ينسـاه. عـشر سـنوات وهـو يتمـنَّى

العودة إليه، فهل سيجد أحدًا يعرفه، هل لا يزال هناك من يذكر راشد رشاد؟ الأغلب أنه لن يجد أحدًا وسط هذا البرد القارس.

......

وجد شخصًا بدا له منسيًّا في البار منذ أيام سابقة. شاب يرتدي بلوفر رخيصًا فوق قميص مُتسخ الياقة، فوق بنطلون جينز ضيق جدًّا، فوق ذلك كله شعر أجعد. بدا متوحِّدًا مع نفسه، ومع كوب البيرة التي يعب منها ولا ينظر لغير الزجاجة، لكن هذه السيدة الصغيرة التي تجلس في الناحية الأخرى تبدو أجمل بالتأكيد. هي أيضًا تشرب على مهلٍ من كأس البراندي. وجهها خمريٌّ، وعيناها عسليتان، وفمُها صغير تزمُّه وهي تشرب «الفم الصغير يعني الفَرْج الضيِّق، والشفة الغليظة تعني الشُّفْر الغليظ، واللسان الخشن مثل البَظْر».

سالم سليمان الأديب المشهور قال له ذلك زمان، حين جاء هو راشد رشاد، من مدينته الساحلية لأول مرة إلى العاصمة. لقد كان حول سالم سليمان عدد كبير من الشباب الضائع، قال عنهم أنهم أدباء في أول الطريق، وكان هو قد قرأ أسماء بعضهم فوق بعض القصص والمقالات من قبل، وقرأ لبعضهم قصائد أيضًا. بعد ذلك لم يقرأ لهم. سافر منذ عشر سنوات إلى البلدة الصحراوية التي لم يكن زعيمها يسمح بنشر شيء لأحد، هو وحده كان يؤلف كل أنواع الأدب.

لا أحد من هؤلاء الشباب هنا الآن. هذه السيدة الصغيرة الجميلة لم تكن هنا ذلك الوقت. لم يكن يوجد نساء وكان الحديث كله عن النساء!

ابتسمتْ له لأنه ابتسمَ لها. قامت، فظنَّها ستنتقل إلى منضدته التي جلس عليها، لكنها عادت وجلست مرةً أخرى. لماذا قامت ولماذا جلست؟ لا يهم. ربما لتُريه البالطو الأنيق. قامت من جديد وخلعته ثم وضعته فوق المقعد المجاور. إنها ترتدي بنطلون ضيقًا وبلوز أحمر قصيرًا وضيق جدًّا، ويبرز الاثنان استدارات جسدها

وانخفاضاته. قام بشجاعة وجلس أمامها.

- هل أشاركك الشرب؟

صوَّبت إليه عينيها الواسعتين وابتسمت. لم يكن الوقت مناسبًا للبكاء، رغم أن المكان خالٍ إلا منها ومن ذلك الشاب. إن وجود امرأة صغيرة جميلة في أيِّ مكان يوسِّع منه ويملؤه بالحركة، ورغم أن حوائط البار بلاها القدم والمقاعد صامتة صمتًا بائسًا، إلا أن وجود هذه المرأة الصغيرة يُشيع حالةً من الانشراح، رغم أن النادل الأسود الضخم جالس وراء الكاونتر، وخلفَه وأمامَه زجاجات وأكواب جامدة، وهو نفسه، النادل، وضع رأسه على يده وأغفى.

البارات هي أجمل مكان للدفء في وقت البرد، والبار الآن خالٍ، لكن هذه المرأة الصغيرة الجميلة تُعيد إليه وجوده كأجمل مكان للدفء حقًّا. لم يكن الوقت أبدًا مناسبًا للبكاء حقًّا، لكنه بكى فجأةً أمامها.. راح يحكي كيف انقلبت سيارته

في الطريق وهو عائد من البلد الصحراويّ، ولم يضايقه أن صوته يحمل خنوثة صوت سالم سليمان «استيقظتُ من الإغماء لأجد عربة إسعاف ورجال بوليس، وسيارتي مقلوبة بعيدًا. هل قفزتُ منها؟ لا أعرف». فتحتْ فمَها دهشةً، فكاد يُدخل إصبعه فيه، لولا أنه خاف أن تعضَّ عليه.

وراح يحكي: «قال لي الضابط احمد الله على نجاتك، وفي المستشفى تذكَّرت زوجتي وابنتي. سألت عنهما قالوا ماتتا. قبل أن أغادر المستشفى سألت عن الحقائب والنقود التي كانت في السيارة قالوا ماتت، ولما تفرَّست في وجه الصول العجوز الخبيث مندهشًا فقط من كون الحقائب والنقود يمكن أن تموت قال لي لقد وجدنا في تابلوه سيارتك باكو هيروين ما رأيك؟ سكتُّ ولم أسأل عن شيء مرة أخرى. لم أقل حتى لم يكن معي هيروين، وقالت لي الممرضة إذا كنت فقدت زوجتك وابنتك فما معنى النقود؟ لم أقل أنه كان معي خمسون ألف جنيه، أدركت أن مبلغًا كهذا تافه لا يستحق أن يسأل عنه أحد وسط هذا الغلاء الذي شمل البلاد».

ولم يتوقف عن البكاء بلا صوت، ولم يشأ أن يحكي لها ما جرى له في قسم البوليس، وفكَّر لماذا يتذكر مأساته الآن وهو الذي قرر أن ينسى، في الوقت ذاته كانت السيدة الصغيرة الجميلة تمشي بيدها على رأسه الذي صار منخفضًا جدًّا. والشخص الذي يشرب البيرة بتبتُّل كان ينظر إليه فاتحًا عينيه ويشرب البيرة الآن من الزجاجة، وخُيِّلَ إليه أنه يخرج منه شيء وصل إلى الأرض وراح يزحف. كان له

صـوت تنفُّـس ثعبـان وحركتـه، لكـن بـلا لسـان مـن أيّ نـوع، وكان الهـواء الخـارج منـه يُطـيّر البقايـا الـتي تعـترض طريقـه حـتى وصـل إلى منضدتهمـا، وراح يتسـلّق سـاق المنضـدة حـتى ارتفـع وتجـاوز حافتهـا وتمـدَّد بينهمـا، ثـم فتـح فمـه. الـذي أدهشـه بحـقٍّ هـو أن المـرأة الصغـيرة الجميلـة مـدَّت يدهـا وجذبتـه نحوهـا ثـم راحـت تصـبُّ البـيرة في فمـه قطـرةً قطـرةً. كانـت تحتفـظ بزجاجـة بـيرة جـوار كأس البرانـدي، وابتسـمت وقالـت:

- مسكين!

وقبل أن يتساءل ما إذا كانت تقصده هو بذلك قالت:

- كل يوم أفعل له ذلك.

كان الشـخص الـذي يـشرب البـيرة بتبتُّـل يُغمـض عينيـه في انتشـاء هـادئ، بينمـا تجمَّـد هـو عـلى المنظـر. هـل مـا يـراه حقيقـة؟ لقـد نـسي أنـه كان يبـكي منـذ قليـل، كادت أحـداث قسـم البوليـس تقفـز إلى ذهنـه فهـزَّ رأسـه هـزَّات سريعـة لتتناثـر ذكرياتـه حولـه. لا يريـد أن يحـكي حـتى لا يتشـقَّق رأسـه ويتفتـت عـلى المنضـدة. وتركـت السـيدة الصغـيرة الـشيء الذي راح يتراجـع إلى صاحبـه، بينمـا هـو يسـأل نفسـه كيـف تطـورت الحيـاة في البـلاد حقًّـا. كـم تمـنَّى يومًـا لـو أطلـق ذَكَـرَه يمـشي في الطرقـات يُعابـث النسـاء والفتيـات! هـا هـو يـرى ذلـك يتحقـق أمامـه لشـخص ضائـع قـد لا يسـتحق كل هـذا المجـد!

ودخـل مـن البـاب مُغـنٍّ أعمـى يحمـل عـودًا، أسرع إليـه النـادل يُمسـكه مـن ذراعـه، يسـاعده في الوصـول إلى منضـدة

بعيـدة، لا بُـد أنهـا مُخصَّصـة لـه. مـا إن جلـس المغـنِّي حـتى قـال للنـادل:

- ألا يوجد غير ثلاثة أشخاص اليوم في البار؟

هتف النادل مندهشًا:

- طول عمري أقول إنك مفتَّح.

ضحك المغنِّي، وقال:

- الأنفاس يا جحش... أنا أسمع الأنفاس.

......

صـوت المغـنِّي مـن الأصـوات الـتي لا يمكـن احتمالهـا إلا في البـارات. إنـه يغـنِّي أغنيـة فايـزة أحمـد «بيـت العـز يـا بيتنـا» ممـا جعـل صاحـب الـشيء يتململ، فهـو تقريبًـا بـلا بيـت، ولأن راشـد رشـاد يـرى أن البـار ليـس هـو المـكان المناسـب لأغنيـةٍ كهـذه، ركَّـز عينيـه عـلى المـرأة الصغـيرة الجميلـة، الـتي بدورهـا قالـت لـه:

- أنـا أعرفـك جيـدًا، لذلـك سـمحت لـك بالجلـوس معـي، بـل إنـني طالمـا تمنَّيـت أن أراك منـذ اختفائـك.

وقبل أن يقول لها اسمه قالت:

- أهلًا بك يا أستاذ سالم.

اتسـعت عينـاه دهشـةً. حقًّـا هـو يحمـل صـوت سـالم سـليمان، لكـن هـل أيضًـا نسـيت المـرأة الصغـيرة صورتـه إلى هـذا الحـدِّ الـذي جعلهـا تعتـبره سـالم سـليمان؟ ولمـاذا

لا تكـون مؤامـرة حبـكَ خيوطهـا المأمـور الـذي كان أول مـن نـاداه بسـالم سـليمان؟ أتكـون عميلـة للسـيد المأمـور؟ إذا كانـت كذلـك فهـي تسـتحق أن يبـدأ بهـا.

وقالت الفتاة، وهي تنظر إليه بإمعان:

- أنـا مـن معجبيـك الكبـار -وتنهـدت- يـا إلهـي! إنهـا قصـة طويلـة. لقـد جريـت مـرةً كتابـة قصـة عـلى طريقتـك. كانـت جميلـة جـدًّا، وأرسـلتها إلى جريدتـك، نشرتهـا أنـت مـع مقدمـة رائعـة تمنَّيـتَ فيهـا لي النجـاح. كنـت سـاعتها في القريـة فتركتهـا وأتيـت إلى هنـا. للأسـف لـم أجـدك ولـم أعُـد إلى قريـتي.. لقـد غبـتَ عنّـا كثـيرًا يـا أسـتاذ..

صفحـة عنقهـا تبـدو أمامـه في نـداوة الشَّـمع وبريقـه، ممـا جعلـه يمـد فمَـه إليهـا، فاقتربـت بوجههـا منـه وتركتـه يلثمهـا عـلى العنـق، ثـم ضمَّـت رأسـها إلى كتفهـا مـن أثـر الكهربـاء الـتي جـرت في جسـدها. قالـت وهـي تتراجـع برأسـها:

- عشر سنين يا بن الكلب!

زالت الحدود بينهما تمامًا. قال:

- ما رأيك أن نستكمل الشرب في مكتبي؟

- عندك مكتب؟

- أجل.

- ليست شقة إذًا؟

- لا. مكتـب كنـت اشـتريته في العـام المـاضي اسـتعدادًا

للعـودة هـذا العـام.

وقفت ترتدي البالطو، وقالت:

- رائع جدًّا. أنا لا أحب الذهاب إلى الشقق!

ضحـكا. انتبهـا إلى أن المغـنِّي لا يـزال يـردِّد أغنيـة فايـزة أحمـد، وبـان ضيـق شـديد عـلى وجـه صاحـب الـشيء الـذي كان قـد دخــل في البنطلـون الآن..

......

صفعهمـا هــواء مفاجـئ وزخَّــة مطـر شـديدة، فتراجعـا تحـت البلكونـات. كان لاصطـدام المطـر بـالأرض صـوت نقـرات متصلـة، وفي اللحظـة الـتي فكـر فيهـا بصعوبـة العثـور عـلى تاكـسي توقــف تاكـسي أمامهمـا «لـولا مـا كنـت ادخرتـه في البنـوك قبـل الحـادث لـصرتُ شـحاذًا» قـال لنفسـه بـلا مناسبة «هـا أنـذا أبـدأ في غـزو مدينتكـم الكبـيرة، سـأبدأ بهـذه المـرأة الصغـيرة الجميلـة الـتي تسـميني بسـالم سـليمان».

كان هـو الـذي التقـى سـالم سـليمان في الدولـة الصحراويـة القريبـة! جلسـا تحـت ضـوء القمـر والنجـوم الـتي تمـلأ السـماء. كانـت الليلـة صيفيـة نسـيمها طـري يبعـث في الجسـد الراحـة وفي الـرُّوح الأمـان. لكـن بعـد ذلـك لـم يظهـر سـالم سـليمان أبـدًا. لقـد مشـيا فـوق الكوبـري المُعلَّـق بـين الجبـال، والخُـضرة تمـلأ السُّـفوح، وفجـأةً قـال لسـالم إنهـا مسـافة كبـيرة جـدًّا بـين الكوبـري وقـاع الـوادي، فقـال سـالم انظـر إلى الطيـور كيـف تصعـد وتهبـط بسـلام، ثـم قفـز. في الحقيقـة صرخ... هـو الـذي

دفعـه في الحقيقـة.. لا يقـين أمامـه. لا يعـرف بالضبـط كيـف مـات سـالم سـليمان. ربمـا مـات بطريقـة أخـرى. مؤكّـد. لـم يعُـد يـراه بعـد ذلـك!

- مكتبك في دور عالي يا أستاذ.

- لكننا نصعد في المصعد.

- ولو...

بـدت أمامـه أجمـل ممـا بـدت في البـار. هـذا غـزو مبكّـر للمدينـة. إنـه في الخمسـين مـن عُمـره. ليـس عجـوزًا بمـا يكفـي ليقنـع بالابتعـاد عـن الحيـاة. وليـس شـابًّا فيـه فَـورة الشـباب. الخمسـين منطقـة منحطّـة ففيهـا تشـتعل المراهقـة في الـرُّوح ويتخـاذل الجسـد. هـذه المـرأة الصغـيرة الجميلـة الكاذبـة لا تبـدو تجـاوزت الثلاثـين. سـتدبُّ الـرُّوح في جسـده مـن أنفاسـها. أجـل يـا سـيدي الضابـط... يـا سـيدي المأمـور!

استدارت فجأةً وأعطته ظهرها.

- اهرش لي هنا.

وأشارت إلى ردفيها، فمدَّ إصبعه يهرش لها.

- خلاص.

لكنها عادت واستدارت مرةً أخرى، وهي تضحك.

- اهرش لي تاني، أصل فيه حاجة بتاكلني.

هـرش لهـا أسرع مـن المـرة السـابقة. ردفهـا طـريّ متماسـك تحـت البنطلـون.

- بس خلاص.

كان المصعد قد توقف. فتح الباب وخرجا. فتح باب المكتب ودخلا. أضاء النور ولاحظت هي أنه ترك باب المكتب مفتوحًا. قال:

- لحظات حتى يدخل أو يخرج.

لم تعرف عمَّ يتكلَّم، لكنه أغلق الباب وقال:

- لقد نسيت، إنه يدخل ويخرج من أيّ مكان.

ابتسمتْ. للحظة اندهشتْ. ارتبكتْ. ابتسمتْ من جديد.

شد انتباهها أن بالصالة مكتبًا خشبيًّا صغيرًا عليه جهاز كمبيوتر في صندوقه لم يُفتَح وبعض أوراق.

- هذا كل شيء؟

تساءلتْ... أجاب:

- هناك غرفة.

كانت الغرفة التي يتحدث عنها أمامَها، بابها مفتوح على الصالة، وكانت صغيرة جدًّا، كما يبدو من السرير الصغير الظاهر فيها. أشارت إلى الثلاجة الموضوعة في ركن من الصالة وسألته:

- عندك شرب؟

- وأكل أيضًا.

دارت حول نفسها ترفرف مثل فراشة. أحضر زجاجة

ويسكي كان قد شرب نصفها من قبل، وجبنًا وزيتونًا، وجلسا على مقعدين متقابلين يأكلان ويشربان فوق منضدة صغيرة سطحها من رخام.

أشارت إلى الحجرة الصغيرة، وتساءلت:

- أهذه هي الحجرة الثانية!

- كما ترين. السرير مباشرةً قرب الباب. حجرة صغيرة جدًّا بالكاد تكفي شخصًا واحدًا.

قامت تعاين الغرفة التي بدت كفتحة مسحورة، وقفت عند الباب تنظر إلى الجدران الخالية من أيِّ شيء فوق السرير. كان هو قد قام ووقف وراءها. ولأنها خلعت البالطو من قبل عند دخولها كان سهلًا أن يمسك ببلوزتها من الجانب يرفعها إلى أعلى، في الوقت الذي بدأت فيه تفكّ أزرار البنطلون. قفزت بسرعة فوق السرير الذي بدا مُخصَّصًا لشخص واحد. ضحكت وقالت:

- أرني كيف ستصعد أنت الآن!

- فوقك. لا حلَّ آخر.

- يا مكَّار. لقد اشتريت سريرًا ضيقًا لهذا السبب!

كان مندهشًا لجسدها النحيل كيف يحمل هذا الصدر الوثير، وكان اندهاشه أكثر لبطنها الضامرة شديدة الانخفاض، ونظر كيف علا فخذاها حتى أخفيا ما بينهما. سقطت ملابسه عنه وامتدت يدها الصغيرة تسحبه من العصا التي انبثقت منه.

- طيب، سأصعد، لا تدفعني هكذا!

سمعته واندهشتْ... تساءلت:

- أنتَ تكلِّم أحدًا آخر؟

لـم يـرد. تذكـرتْ مـا فعلَـه حـين تـرك البـاب مفتوحًـا. وانتبهـت إلى أن ملابسـه قـد زالـت عنـه دون أن تمتـدَّ يـده هـو تقريبًـا. تأكـد لهـا أنـه شـخص غريـب الأطـوار. لقـد اسـتبعدت بشـدة أن يكـون هنـاك شـخص ثالـث معهمـا. وانقلبـت بسرعـة عـلى بطنهـا.

«كان سـالم يحدثـني كثـيرًا عـن اللـذة غـير العاديـة لإتيـان النسـاء مـن الخلـف. رأيت بـدو الصحـراء يفعلون ذلـك في الرجال والغلمـان. تذكَّـرت الحديقـة الرومانيـة بالبلـدة الصحراويـة الـتي عِشـت فيهـا عـشر سـنوات. السـيارات الـتي تـأتي مـع المغـرب تحمـل النسـاء إلى الشـقق والأوتيـلات. الأسـعار غاليـة والبلـدة فقـيرة. ولما جرَّبـت ذلـك شـهقت العاهـرة الصغـيرة وأنـا أطلـب منهـا أن تـأتي معـي إلى البيـت، وقالـت وهـل أذهـب إلى غـير البيـوت؟ كـم تدفـع؟ قلـت مائـة دولار، قالـت الحمـد للـه إذًا أنـت مـن حـزب قـدَّام. قلـت أنـا لـم أجـرب الخلـف أبـدًا ولا أظـن أني أحبـه. قالـت إذًا سـآتي معـك بالمائـة دولار، لكـن إذا غـيرت رأيـك تزيدهـا خمسين دولار فأنـا لا أعطـي أحـدًا ظهـري بسـهولة، ثـم ضحكـت وقالـت عـلى العمـوم أنتـم في بلادكـم لا تحبـون الـوراء، تحبـون فقـط أن تهربـوا قبـل الدفـع. تنامـون مـع النسـاء بـلاش! وفتحـت يدهـا تسـتقبل المائـة دولار

مُقدمًـا».

- لماذا تقف صامتًا؟

تساءلت المرأة الصغيرة الجميلة فمال فوقَها.

كل شيء فيهـا دافئ إلا المؤخـرة. لا بـأس.. عـلى مهلـك. قالـت... روحــه تنسـحب منــه الآن. لا بُــد أنهـا تتلــذذ أكـثر منــه. إنهـا طريقـة لا تصلـح للانتقـام، وهـو يريـد الانتقـام، لكنهـا صرخت فاندفـع خارجًـا عنهـا...

وراحــت تخبــط رأســها في المخــدة وتــضرب بكفَّيهــا جانــبي الســريـر وتنتفــض. لـم يكـن قـد أطفـأ نـور الغرفـة، لكنـه رأى الظـلام حولـه مـن كل ناحيـة. إنـه لا يـرى. حقًّـا لا يـرى. كيـف لا يـرى وهـو يملـك عينـين؟ قفـز بسرعـة نـازلًا عنهـا مبتعـدًا عـن الغرفـة. وهـو يـصرخ «عنـدي مسـكِّن للألـم». وراح يبحـث في كل أدراج المكتــب ودولاب الملابــس الصغــير، وهــرول إلى حجــرة المطبـخ يبحــث في أدراجهـا، وفتـح بـاب الثلاجــة أيضًـا فعـثر فيـه عـلى الروبالجـين الـذي لا يعـرف مـتى اشـتراه، وعـاد إليهـا مُسرعًـا، لكنـه وقـف حائـرًا وأنبـوب المرهـم في يـده.

- ادهن... بسرعة.

- كيف؟

- بإصبعك.

قالـت وهـي تنتفـض بمؤخرتهـا وتضرب جانـبي السريـر بيديها. راح يدهـن. في البدايـة صرخـت. شـيئًا فشـيئًا اسـتجابت للصمـت. كانـت أنفاسـها تتلاحـق. شـيئًا فشـيئًا تباعـدت. تنهـدت في النهايـة

تنهيدة طويلة وشخرت شخرة طويلة ونامت. ماتت. قال في نفسه مرعوبًا وهو يراها ممتدة أمامه جميلة كشعاع من نور «لا يمكن أن تكون عميلة للمأمور ولا لأيّ جهة كانت. يا لها من مسكينة معذبة!» سمع أنفاسها. انقلبت على ظهرها بهدوء فتنفّس مرتاحًا.

- ماذا فعلت؟

- لا شيء.

ابتسمت وهي تشير إليه.

- أنت عريانْ!

ابتسم... قال:

- وأنتِ أيضًا.

- لا تؤاخذني.

- سأذهب أغسل يدي في الحمام.

- يديك فقط؟

- كله... كله.

ابتسمت متهافتةً. ذهب يغتسل وعاد فوجدها قد ارتدت ثيابها، لكنه لاحظ أن الكيلوت لا يزال على الأرض!

- كيف أراك؟

- في البار في المساء في أيّ يوم. في برج العذراء يتجمع كل الأحباء يا أستاذ...

أشار إلى الكيلوت.

- خليه عندك. تذكار.

ابتسمَ... قالتْ:

- أنـا أعـرف أن الرجـال عيونهـم فارغـة. ولـو كنـت أقـدر كنـت تركتـه لـك مـلآن. لكـن تخيـل أن أتـرك لـك فيـه أعـز مـا أملـك كيـف أمـشي بـين النـاس. مـن سـينظر إليَّ؟

ضحـكا بصـوتٍ عـالٍ. قبَّلتـه ونزلـتْ. تنـاول الكيلـوت ورغبـة تشـدُّه ليشـمه. صعـدت إليـه أبخـرة المِسـك. مـا أجملهـا فتـاة! لكنـه لـم يعـرف اسـمها. لـم يسـألها. وفكَّـر وهـو مُأتلِـق العينـين أن فكـرة الاحتفـاظ بكيلوتـات النسـاء رائعـة حقًّـا. سـمع صـوت ضحـكات رفيعـة في الصالـة. نظـر فـرأى «فـرح» يخـرج مـن البـاب والكيلـوت في يـده. كيـف أخـذ الكيلـوت مـن يـده دون أن يشـعر بذلـك حقًّـا!



- 3 -

في الصباح تقاطرت الفتيات طالبات العمل. كان قد طلب من كبرى الصحف في اليوم السابق على خروجه من المستشفى أن تنشر إعلانًا بوظيفة سكرتيرة حسناء لكاتب وأديب يقع مكتبه في العاصمة، وفي الإعلان العنوان. اليوم ظهر الإعلان في الصحيفة، ومنذ العاشرة والفتيات تُقبلن على المكتب.

في الساعة الأولى استقبل عشر فتيات لم تعجبه واحدة منهن. لقد تغيرت نظرته للمسألة أربع مرات، في الأولى كان وهو عائد من الدولة الصحراوية يفكر في هذا الاعلان ليوظف حقيقة سكرتيرة حسناء تجيد الكتابة على الكمبيوتر، لتنظم وقته وتكتب مقالاته وقصصه التي سيبدأ بها حياته الأدبية الجديدة بلا خوف من فقر أو منافسة، وفي المستشفى فكر أن لا يفعل ذلك بعد أن أدرك موت زوجته وابنته، وقبل

الخـروج قـرر أن يعـود للإعـلان عـن هـذه الوظيفـة، لأنـه لـم يعُـد لـه إلا الأدب والكتابة، وبعـد خروجـه مـن قسـم الشرطة قـرر الفتـك بـكل النـاس... عـلى الأقـل الآن.

في السـاعة التاليـة اسـتقبل عشريـن فتـاة بينهـن عـشر فائقـات الجمـال. لاحـظ أنهـن جميعًـا كاذبـات يتحدثـن عـن عائلاتهـن المحترمـة وأماكـن سـكنهن الراقيـة. مـا الـذي يجبرهـنَّ عـلى هـذا العمـل إذًا! أخـذ عناوينهـن وأرقـام تليفوناتهـن وقـال أنـه سيرسـل إليهـن في الوقـت المناسـب. لـم يبـدُ أنهـن تألَّمـن رغـم أنـه أراد تعذيبهـن. كان واضحًـا أنهـن تعـودن عـلى التقـدُّم إلى أعمـال كثـيرة والعـودة دون الحصـول عليهـا. وجـد بينهـن عـددًا عـلى اسـتعداد لعمـل أيّ شيء. لـم يعجـب بهـن. إنـه يريـد الصنـف الخجـول الصامـت الرقيـق الباحـث بحـق عـن عمل شريـف. يريـد هـدم الحصـون. اسـتبقى واحـدة مـن هـذا الصنـف وقـال:

- رتبي معي عناوين وتليفونات المتقدِّمات.

جلسـت معـه تسـتقبل الفتيـات وتفعـل مـا طلبـه. لقـد تدفقـت الفتيات إلى درجـة أنـه طلـب منهـن الوقـوف في الردهـة أمـام الشـقة، فالصالـة صغـيرة لا تسـتوعبهن. كان منظرهـن وهـن واقفـات في الردهـة بـين أبـواب الشـقق الأخـرى يراهـن السـكَّان مخجـلًا حقًّـا. لكنهـن دخلـن مـع بعضهـن في أحاديـث وثرثـرة، ممـا جعلهـن لا يريـن شـيئًا حولهـن. عنـد السـاعة الخامسـة انقطـع وصـول الفتيـات. لـم يكـن يفعـل أكـثر مـن أن يسـأل كل واحـدة منهـن عمَّـا إذا كانـت قـد عملـت مـن قبـل

وأيـن، وهـل تعـرف مـا هـو واجـب السـكرتيرة، ثـم يتفحصهـا مـن أعـلى إلى أسـفل، وكان يـرى جسـدها مضيئًـا تحـت الثيـاب. كانـت نظراتـه تنضـو الثيـاب عنهـا. ورغـم ذلـك تعـب. حـتى إذا لـم يعـد موجـودًا غـيره هـو والـتي اسـتبقاها جلـس خلـف المكتـب الخشـبيّ واضعًـا رأسـه بـين يديـه متكئًـا عـلى المكتـب بمرفقيـه. كان الكمبيوتـر يشـغل مسـاحةً مـن المكتـب.

- مالك يا أستاذ؟

تساءلت البنت الرقيقة.

كاد يـصرخ، هـل بقـي أحـد اليـوم لـم يـأتِ إليّ في البـلاد؟ لكنـه قـال فجـأةً:

- أرهقتـني البنطلونـات الضيقـة. تُـرى كـم مؤخـرة رأيـتُ اليـوم!

بـدا عـلى وجـه الفتـاة الرقيقـة وَقـع الصدمـة. وهـو انتبـه إلى مـا قـال.

-آسـف جـدًّا، لا بُـد أنـني تعبـتُ بحـقّ. أحـضري لي زجاجـة الويسـكي.

ترددت لحظةً.

- مالك؟

- لا أعرف الويسكي.

- هي زجاجة واحدة هاتيها.

استدارت. ابتسمت بعد أن استدارت، بينما كان هو يركز عينيه على مؤخرتها الصغيرة. كم هي جميلة الاستدارة! هي الانتقام الثاني. الأولى... لا يجب أن يحصي الفتاة التي نسي أن يسألها عن اسمها!

جلست البنت على مقعد مواجه للمكتب، بعد أن وضعت أمامه الزجاجة وكأسًا أحضرته من المطبخ. صبَّ لنفسه الكأس ونهض ليجلس جوارها. فلأجرِّب فإذا جفلت أرسلتُ لغيرها غدًا. ما أكثرهنَّ الآن!

- هل تحب بعض النساء الإتيان من الخلف؟

قال ذلك فجأةً. تراجعت في ذعر إلى آخر المقعد الطويل. بل وقفت مرعوبةً.

ظل هو ينظر إليها وهي تتكلم في غيظ:

- حضرتك طلبت مني العمل لتسألني عن ذلك!

ابتسم ووقف...

- لا تخافي.

اقترب منها والكأس في يده. بيده الأخرى مشى على رأسها. لا تخافي يا صغيرة. أنت صغيرة جدًّا أنا أعرف، وأنا مثل كينج كونج. الفتاة الصغيرة أحبَّت كينج كونج في الفيلم الأميركي. ألم تشاهديه؟ كانت تبتسم وهو يضمُّها برفق إلى صدره. همست:

- أقول لك السبب؟

- قولي...

- هؤلاء عادةً عاهرات يخفن من الحمل، حبوب منع الحمل تسبِّب السرطان، واللوالب تضيِّق خُلق النساء، والأهم من ذلك أن بعض السيَّاح العرب يحبون الخلف.

كان يُقبِّل رأسها وجبهتها الباردة وهي تقول هامسةً بلاش... لأ، حرام. وبيديها الصغيرتين تفكّ أزرار بنطلونه. وحين لامست يداها جسدَه كان لهما ملمس أرنب، وبسرعة كانت قد أمسكت به وأخرجته من البنطلون وهبطت على الأرض... إنه يشرب الآن الويسكي ويتلذذ بالألم. يتألم باللذة فلا فرق. يده تعبث بشعرها وهي تقوم بعملها ولا تتقطع أبدًا أنفاسها فأنفها مفتوح للغاية...

كانت هذه أول مرة يفعل فيها ذلك، وكان خائفًا بحقّ، وجدران الغرفة تتلاشى من حوله. سيراه الناس في الدنيا كلها وتصير فضيحة وهو يهتز ويكاد ينخلع عن الأرض وهي تتشبَّث بيديها بقوة في ردفيه. ولما تركته كانت الكأس قد سقطت على الأرض وانكسرت، واندفع هو إلى الخلف هاويًا على الفوتيل في استرخاء عجيب، ينظر إليها فيراها وسط غبش وضباب كأنها حلم نهار...

- يا بنت الكلب!

قال وهو في منطقة العماء الكامل. وحين فتح عينيه بعد لحظات لم يجدها.

- تعال... أنا هنا.

أتاه صوتها من الحجرة.

نهض يمشي مُباعدًا ما بين ساقيه، ينظر إلى خيط المنيّ الذي يتدلَّى منه، ويسقط على الأرض. كان البنطلون والسروال إلى أسفل عند قدميه. فأخرج قدميه منهما، وخلع حذاءيه والبلوفر والقميص والفانلة، ومشي عاريًا إلى الحمام ليغتسل. تحت الماء ضحك وقال لنفسه «بنات اليوم فيلم رومانسي قديم لعبد الحليم حافظ لا يعني شيئًا الآن»

......

- قبل أن تصعد لي شرط.

- اشرطي.

- مرتان... ومرة من الأمام.

سكت لحظةً. هل يقدر على ثلاث مرات؟ هذه الخمسين سنة! قال:

لا فائدة. وربما تدرك أنه لن يقدر إلا على مرة أخرى. لكنه تشجَّع. من يدري! قد تتفجر فيه بئرٌ منسيةٌ في جسده باللبن والعسل. ربما هناك فيضٌ قديمٌ من الخصب مختبئ فيه، وطاقات الإنسان لا تنتهي إذا أراد..

كانت تتأوَّه بصوت. فكَّر أنه قد يصل إلى الشقق المجاورة، ثم كاد يهمد بحق وهو يتذكَّر الفتاة التي نسي اسمها.

تراجع عنها وهو يشعر بجسده يشتعل. لقد عرف السيَّاح العرب عظمة الباب الضيق قبل أن تخترع أمريكا

الجينز. قال لنفسه وهو يتراجع مهتزًّا لا تكاد ساقاه تحملانه.

- أنت تكلِّم نفسك؟

- لا تهتمي. كثيرًا ما أفعل ذلك.

مشي إلى الصالة وارتمى على أقرب مقعد فاردًا ساقيه، ذاهلًا عن نصفه الأسفل تمامًا، مُعلقًا بصرَه بالسقف. تذكَّر فرح، كيف اختفى اليوم! سيأتي اليوم الذي يتخلَّص فيه منه. وما دام لا يظهر في مثل هذه الأوقات فهي سبيل الشِّفاء من القتل. لم يقتل. من الشعور بالإثم. لم يأثم. كاد يبكي متوسِّلًا أن يرى فرح!

أتت البنت نحوه عاريةً، لكن الحزن كسا وجهها بشكل مفاجئ. كانت دمعة في عينيها. هل تفعل ذلك لأول مرة؟ هل تفعل ذلك لتفوز بالعمل، لتأكل؟ لكنها تبدو مجرية جدًّا. جلست جواره ونظرت إليه.

- ساعات أتمنى أقتل خالي.

-.......................

- وساعات أريد أن أشكره.

- ولماذا تريدين أن تقتليه.

- هو الذي اغتصبني. خالي سياسي كبير. هو يقول ذلك. أمي كانت تقول عنه ذلك. لكن عمري ما رأيت صورته في جرنال أو مجلة.

- ولماذا تركتيه يفعل ذلك؟

- أتى مـرةً ليختـبئ في بيتنـا مـن المباحـث. كانـت المباحـث تطـارده دائمًـا. نحـن نعيـش في غرفـة واحـدة أنـا وأمـي وخمـس إخـوات. أبي ينـام في الجـراج الـذي يعمـل فيـه. أمـي قالـت هـذا خالكـم يـا أولاد ليـس غريبًـا سـينام وسـطكم عـلى الأرض. نـام جـواري. في منتصـف الليـل أحسسـت بـشيء ثقيـل بـين فخـذيَّ. كانـت يـده، رماهـا عـليَّ. قلـت ربمـا غصبًـا عنـه. بعـد لحظـة سخنتْ يـده وسـخنتُ أنـا. بـدأ يهـرش لي بإصبعـه. قلـت لنفـسي يعـني ح يعمـل إيـه؟ هـذا مجـرد إصبـع وأنـا لابسـة كيلـوت ضيـق وجديـد. تركتـه. لحظـات وبـدأ فخـذاي يبتعـدان عـن بعضهمـا، شـعرت أن جسـدى كلـه يـصرخ وأريـد أن أشـدَّه فـوقي. هـو لـم ينتظـر. رفـع جلابيـتي وبـرك فـوقي. أنـا كنـت سخسـخت. كتـم نفـسي بيـده حـتى لا أصرخ. وأنـا كنـت أريـد أن أصرخ، ليـس رعبًـا ولا رفضًـا، لكـن مـن النـار اللذيـذة الـتي تـدور داخـل جسـدي. عمـل عملتـه ومسـحني بمنديـل ورق طلعـه مـن جيبـه.

- ألم ينتبه أحد من إخوتك؟

- قلـت لـك كتـم نفـسي، وإخـواتي شـغّيلة في المحـلات شـقيانين، نايمـين ميتـين، وأمـي شـقيانة مـن الخدمـة في البيـوت.

مـد ذراعـه يحتضنهـا. بـدت صغـيرةً جـدًّا تحـت ذراعـه. كيـف حقًّـا نـام فوقهـا وهـي صغـيرة بهـذا الحجـم! النسـاء مهمـا بـدون أصغـر مـن الرجـال فعنـد الجنـس يحتويـن الرجـال، يصـير الرجـال أقزامًـا في أحضانهـنَّ.

- ماذا فعلتِ بعد ذلك؟

- لا شيء. خـالي تعـوَّد. هربـان أو غـير هربـان مـن المباحـث كان يـأتي ينـام عندنـا. اشـترى لي شريـط منـع الحمـل.

قال في دهشة شديدة:

- لهذه الدرجة؟

- وأكثر. لو تعرف الثاني تستغرب، ولن تصدق.

- مَن؟

- أبي..

- مستحيل!

سكتتْ ونظرتْ إليه طويلًا.

- أين كنت قبل اليوم؟

- في دولة عربية. لكن لماذا السؤال؟

- معـك حـق أن لا تصدقـني. الـدول العربيـة لا ينـام فيهـا كل عـشرة أو حـتى خمسـة في غرفـة. أنـا عـلى اسـتعداد أعرفـك عـلى بنـات كتـير باظـت مـن أهاليهـا. وأنـت أكيـد قـرأت عـن الجـزار الـذي نـام مـع بناتـه الأربعـة.

- فعلًا. قرأت في الخارج عن الحادثة.

كيـف يتخلَّـص مـن هــذه الكارثـة الـتي انفجـرت أمامــه! سـيُعطيها خمســين جنيهًـا ويطلــب منهــا أن لا تــأتي.

- ما رأيك تساعدني وتقدّمني لأصحابك العرب!

ابتسم مندهشًا...

- أنا ليس لي أصحاب عرب.

- لقد قلت إنك كنت في بلد عربي.

سكت لحظةً مرتبكًا، ثم قال:

- طيب. إن شاء الله سأفعل ذلك.

- وأصحابك يقدموني لأصحابهم.

ثم أضافت بسعادة:

- ياه! هكذا أشتهر في كل البلاد.

ضحك بشراسةٍ. ونظرت إليه مندهشةً، ثم قالت:

- لماذا فتحت هذا المكتب؟

- أنا كاتب وأريدك أن تكتبي لي قصصي ومقالاتي..

- لو قدمتني لأصحابك أكتب لك أحسن كتابة.

عاد يضحك وعادت تتكلم...

- أصل أنا نفسي أشتغل كده، ولا أعرف الطريقة. خائفة. أنت تشجعني وينوبك من الحب جانب. وعلى فكرة أنا أقدر أقدّم لك بنات أبكار بختم ربها تدخل عليها بنفسك.

- أنتِ شيطانة حقيقية ولا يبدو عليك ذلك أبدًا!

هزّت رأسها..

- ومَن الذي يبدو عليه أيّ شيء؟ عندك خالي يتكلم عن الحرية والعدالة ثم يغتصبني. لكن والنبي باحبه...

ابتسم...

- لذلك تريدين أن تشكريه؟

- عرفني حاجة حلوة. ثم إنه لا أحد يتزوج الآن إلا بعد الأربعين، وساعات الخمسين.

نسي رغبته في التخلُّص منها. بدت ساذجةً فقيرةً. أعطاها مائة جنيه. هتفت:

- مرتب شهر؟

- لا، اليوم فقط.

تعلَّقت بعنقه تقبِّله.

- طيب إيه رأيك تنام معايا تاني؟

- لماذا؟

- علشان تبقى فلوسي حلال..

ضحك لحظات طويلة، وظل يضحك وهو عار ويفكر في هذه الشيزوفرنيا الشائعة عند العاهرات بينما هي ترتدي ملابسها، ثم انطلقت في ضحكة مُبهجة وهي تحملق فيه، وقالت:

- شيء غريب..

- ما هو الغريب؟

- عندنا في الحي واحدة ولدت الأسبوع الماضي.

اندهش وابتسم...

- وماذا في ذلك؟ كل النساء تلد!

- لكن هذه ولدت جحش..

حملق فيها في غاية الاندهاش. فواصلت:

- طبعًا لن تصدق.

- أنا ممكن أصدق كل شيء لكن هذا صعب..

- ولـدت جحشًـا حقيقيًّـا صغـيرًا ولـه أربـع أرجـل. تفتكـر تكـون نامـت مـع حمـار؟

ضحك وجلجلت ضحكته.

- شكلك لا تصدقني!

- أصدقك.

- اراك على خير.

وخرجـت عـلى أن تـأتي في الغـد، وعـاد هـو يضحـك حـتى أحـسَّ بتعـبٍ شـديدٍ. خـاف عـلى نفسـه بحـق. كيـف نـسي أنـه خـارج مـن المستشـفى بعـد شـهر مـن العـلاج الـذي أعـاده إلى الحيـاة! تمـدَّد عـلى المقعـد الفوتيـل واسـترخى...

......

«يا إلهي لماذا أكاد أفقد الوعي!»

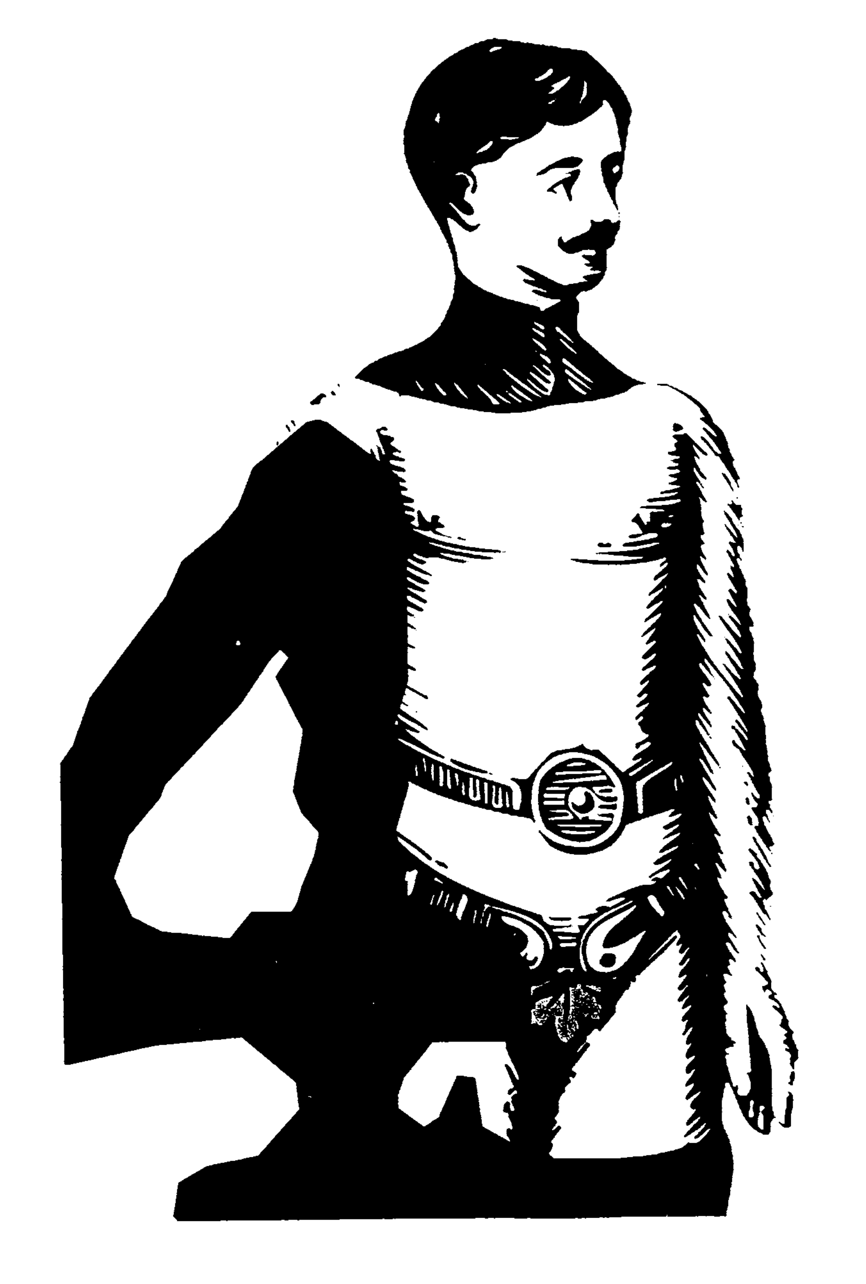
تساءل في نفسه. أتاه الصوت العجيب لفرح:

- إنـكَ بعـدُ لـم تـرَ. المهـم أن تتحمَّـل. ثـم إنـك لـم تقـدر

علـى الانتقـام.

ثم رآه يضحك مبتهجًا في أرجاء الصالة.

«سالم سليمان ظهر في البلاد!»



- 4 -

«يتردد بشدة وجود الكاتب سالم سليمان في العاصمة. كان سالم قد اختفى منذ سنوات بعد زيارته لإحدى الدول العربية. قيل أنه قتل وقيل أنه مات، وفي كل الحالات لم تظهر جثته. كاتبة شابة قالت أنها رأته وأكدت أنها أمضت معه وقتًا طيبًا».

ألقى بالصحيفة على الأرض ووقف غاضبًا. لقد نشرت الفتاة التي نسي اسمها الخبر وجعلته يصل إلى الصحف. لم يكن يدور بذهنه أنه سيصبح بسرعة محلَّ اهتمام الناس. وهو لا يستطيع أن يُعلن أنه سالم، هو لا يرى وجهه إلا وجه راشد رشاد. يتآمر عليه الجميع أم يتآمر هو على نفسه؟ أيكون سالم بالفعل وراشد رشاد هو الذي اختفى؟

لكنه يتذكر اللقاء الأخير بينهما حين حدَّثه سالم بين الجبال الخضراء عن خيرات الجبال الخضراء، عن ينابيع المياه التي لم تتوقف منذ مرَّ عليها اليونان. عن الكهوف

التي يعيش فيها النحل منذ آلاف السنين. عن عسل النحل النادر الذي لا يصل إليه أحد. عن التين والأعناب والزيتون التي لها طعم العسل والتي حرَّم الحاكم على الناس جمعها، فراحت الأشجار من يومها تبكي مثل أم ينزل لبنُها حنينًا لطفلها الضائع. وتذكر كيف طاف به في الثنايا وبين التلال حتى وقفا فوق الكوبري المُعلَّق منذ الحرب العالمية الثانية.

«أنا الذي أخذته في هذه الجولة في الحقيقة. أنا الذي كنت أعمل هناك وكان هو مجرد زائر. زائر للمرة الأخيرة. زائر شريد ترك موطنه الأصلي بلا سبب معروف، وراحت تحمله الريح من بلد إلى بلد. من يومها وصوتي هو صوته الأنثوي!»

من يومها وفرح يمشي معه. فرح أم الشيطان لا فرق يا راشد... وأخذ طريقه إلى البار. للفتاة التي نسي اسمها ليحذِّرها من الحديث عنه في أي مكان.

......

ما إن هلَّ بطلعته حتى نادته الفتاة بشغف. لاحظ أن صاحب الشيء يجلس بعيدًا لا يظهر منه شيء، وأن المغني يأكل ويشرب ولا يغني، وأنه إلى المنضدة معها جلس رجل في حوالي الخمسين، له ذقن خفيفة تستدير حول وجهه المستدير، ورجل آخر في حوالي الأربعين. الذي في حوالي الخمسين لم يبدُ له مصريًّا، والرجل الأربعينيّ يحمل وجهًا مألوفًا لكنه لا يتذكَّره. وقف الرجلان يصافحانه. بدا له

الرجـل الخمسـينيّ حزينًـا مُعذبًـا. بـادره بالقـول:

- لـم أكـن أتصـور أن أراك بسرعـة يـا أسـتاذنا. الحمـد للـه الـذي وضـع هـذه الفتـاة في طريقـي لتطلـب مـني أن أنتظـرك.

لـم تكـن الفتـاة الـتي نـسي اسـمها قـد وقفـت مثلهمـا. قالـت تُشـير إليهما:

- أسـعد سـعيد كاتـب السـيناريو المعـروف وبـو عـلي وزيـر سـابق.

رأى فـرح يجلـس فـوق رأس بـو عـلي يضحـك، فارتبـك. كان يريـد أن يسـأل الرجـل الخمسينيّ، بـو عـلي، كيـف حقًّـا يُناديـه هـو أيضًـا بسـالم سليمان، في الوقـت الـذي فكَّـر أنه لا يعـرف ولـم يسـمع عـن كاتـب سـيناريو باسـم أسـعد سـعيد، لكـن فـرح أربكـه تمامًـا...

استطاع بعد تردُّد أن يتكلم.. سأل بو علي:

- هل سبق لك معرفتي؟

- وهـل يخفـى القمـر يـا أسـتاذ! مَـن في العالـم العـربي لا يعـرف سـالم سـليمان كاتـب المقـالات الحـر وصاحـب الرسـائل الجريئـة والـروائيّ الفـذ. بلادنـا كلهـا تقـرأك حـتى الآن. حـتى أيـام الخـلاف بـين دولتينـا كنَّـا نقـوم بتهريـب الصُّحـف الـتي تكتـب فيهـا.

سـكتوا جميعًـا لحظـات. لاحـظ سـالم أن صاحـب الـشيء يتابعهـم بعينيـه باهتمـامٍ، وفكَّـر أنـه قـد يُطلـق إيـره عـلى الجميـع الآن. هـذه حقًّـا لحظـة مناسـبة، لكـن بـو عـلي قـال:

- لكنك اختفيت كثيرًا يا سيدي.

نظر راشد إليه بحِدَّة، وتساءل:

- ماذا تريد بالضبط؟

- أن تسمعني. خذني إلى مكان بعيد هادئ. أنت الذي ستُنقذني وتُنقذ وطني.

فكَّر قليلًا، ثم قال:

- ولماذا لا تحكي أمام الجميع؟.

- إنها قضية لا يدرك أبعادها إلا كاتب مثلك عركته الحياة.

قال أسعد سعيد كاتب السيناريو:

- أنا أيضًا عرفتُ بظهورك فجئتُ لتسمعني.

وتقدم إليهم صاحب الشيء يحمل مقعده ليجلس جوارهم، ويقول:

- أنا أولى بكم أن يسمعني الأستاذ..

وهنا هتفت وداد في صاحب الشيء:

- حكايتك كتبها أسعد سعيد وتقدَّم بها إلى التلفزيون لتحويلها إلى سهرة لكنها رُفِضَتْ. رفضتها الرقابة.

قال صاحب الشيء:

- لكن لا بُد أن يسمعني الأستاذ. أسعد كاتب فاشل.

ابتسم راشد رشاد مندهشًا من هذا الموقف العجيب،

الـذي زاد في غرابتـه قـول أسـعد:

- أنـا يـا أسـتاذ منـذ رحيلـك مطـرود مـن جنـة التلفزيـون بسـبب محاولـتي تحويـل إحـدى قصصـك العجائبيـة إلى فيلـم تلفزيـوني. قصـة الحاكـم الـذي ظـلَّ يخطـب في الشـعب ثلاثـة أيـام كاملـة، تحـوَّل الشـعب بعدهـا إلى أعمـدة بيضـاء مـن الملـح.

هتفت وداد:

- اللـه أكـبر. لدينـا إذًا ثـلاث قصـص. قصـة بـو عـلي وقصـة صاحـب الـشيء وقصتـك العجيبـة يـا أسـتاذ -ثـم حدَّثـتْ بـو عـلي- سـيادة الوزيـر السـابق لمـاذا لا تحـكي قصتـك أمامنـا ليقـوم أسـعد بتحويلهـا إلى فيلـم قـد توافـق عليـه الرقابـة وتنتهـي عقدتـه مـع التلفزيـون.

هزَّ بو علي رأسه في يأس، وقال في هدوء:

- يـا سـت وداد أنـا مـا جئـت لأحـكي إلا للسـيد سـالم. إذا لـم يأخـذني السـيد سـالم إلى مـكان هـادئ بعيـدًا عنكـم سـأشرب معكـم زجاجـة بـيرة وأمـضي.

رأى راشـد في وجـه الرجـل الأحمـر كثـيرًا مـن الذلـة والانكسـار. رجـل في هـذا العمـر وغريـب جـاء خصيصـا لـيراه، لا يمكـن أن يهـذي. ثـم إنـه غـير مرتـاح لانضمـام صاحـب الـشيء إليهـم، كمـا أنـه لا يعـرف شـيئًا عـن القصـة العجيبـة الـتي ينسـبها إليـه أسـعد سـعيد. الأفضـل أن يبتعـد عـن هـذا الموقـف الـذي لا يـشي بغـير الجنـون. وقـف...

- هيا معي يا سيدي إلى البيت.

- الله أكبر. هذا ما كنت أنتظره.

هكذا قال بو علي، وهو يقف منتشيًا سعيدًا..

ولاحظ أن فرح عاد يقف فوق رأسه يضحك ويصفق...

......

- بلادنا جميلة يا أستاذ، لكن أفسدها الحكَّام..

قال بو علي ذلك وهو يتناول فنجان القهوة الذي أعدَّه راشد له.

- أرجوك أنا لا أحب السياسة.

ابتسم بو علي وقال:

- ومن تحدث في السياسة؟ اصبر. أنا سأحدثك عن الموسيقى...

شملهما الصمت لحظاتٍ وهما يحتسيان القهوة. ما إن وضع الرجل فنجانه على المنضدة الصغيرة التي تتوسط المقاعد حتى قال:

- الحاكم في بلادنا كل شيء، والناس جزم!

وبسرعةٍ أضاف:

- لا تقاطعني. لا يذهب فكرك بعيدًا. سأدخل بسرعة إلى الموسيقى.

تنهَّد راشد في استسلام، واستمر الرجل في الكلام:

- حاكمنا ترك الناس تفعل ما تشاء، تبيع، تشتري، تزرع، تصنِّع، تتعلَّم، تسرق، تتاجر، ما تشاء. حتى الأحزاب أطلق حرية تكوينها، فبلغت المائة، لكنه طلب من الشعب أن يُعطيه شيئًا واحدًا، أن يضع بنفسه قوانين النكاح. لقد كان أمرًا مضحكًا، ورآه الشعب بسيطًا وتافهًا، وتم وضع دستور جديد للبلاد أولى مواده «النكاح نشاط يحدد زعيم البلاد قوانينه».

قاطع رشاد بو علي ساخرًا:

- هل أنت وزير سابق حقًّا؟

- هل تشك فيما قلته لك قبل أن أشرب القهوة؟

- لا. إن شكلك يقول إنك بالفعل من بلاد الشمال، وكذلك لكنتك، لكن هذا كلام خرف.. أنا لا أصدق أبدًا أنك أتيت معي لتهرف بهذا الكلام!

ابتسم الرجل، وقال:

- لو تجمَّلتَ قليلًا بالصبر. أرجوك. لقد ظنَّ الشعب في البداية أن الحاكم وهو يطلب أن يكون النكاح في يده رجل فحل، يريد أن يحقق فحولته في الناس، ولما كان الناس كثيرون جدًّا، توقعوا أنه لن يستمر، قد يزهق أو يموت، أو أن الأمر كله نكتة، ومن ثَم فإن هذه المادة الدستورية ستكون مثل كثير من المواد المعطَّلة، لكن ما إن أقرَّ الشعب الدستور حتى أفصح الحاكم عن مراده، فجعل البيوت كلها موصلة بشبكة اتصالات رهيبة، وكاميرات سحرية

مثبتة في جميع الغرف، بحيث لا يجامع رجل زوجته أو حتى عشيقته إلا وعين الحاكم فوقهما، ولا تغنج امرأة ولا يتهتك رجل إلا وأُذن الحاكم فوقهما. لا تحسبني مجنونًا، انتظر فإن ما تراه هزلًا صار هو الجدّ بعينه، إذ إنه فجأةً أمر الرجال أن ينكحوا زوجاتهم في صمت، فهو لا يحب أصوات الرجال. لا بُد أنك الآن بدأت تنشغل عن حديثي بذهنك في شيء آخر، وستعطيني بعض الوقت حتى أنتهي وأمضي، ليكن، لكن القصة لا بُد أن تتمَّ، وعند نهايتها افعل بي ما تشاء.

- أكمل..

قال في استسلام، وبدا عليه شيء من الملل، فأسرع الرجل في الكلام..

- صار الرجال ينكحون نساءهم بلا نفس، يقفزون فوقهنَّ بسرعة، وينزلون عنهنَّ بسرعة، وينامون بسرعة، فقرر الحاكم أن يقتل كل من ينتهي قبل نصف ساعة من الإيلاج. هل تعرف كم قتلَ؟ قتل رُبع سكَّان البلاد من الرجال، وكلما ازداد القتلى ازداد الخوف، وكلما ازداد الخوف تسارع القذف، وكان رجال الحاكم يضحكون كلما تدحرجت رأس رجل ثبت أنه يُنهي نكاحَه بسرعة، فتباطأ الناس، وصار الرجال ينامون فوق أزواجهن، وكره الجميع المعاشرة وابتعدوا عنها فصارت بلادنا جافة، مات فيها الزرع ونفقت فيها الحيوانات ونشفت جلود النساء وتشققت، وذبُل الرجال. بلادنا الخضراء غزيرة المطر والمياه. كل شيء في بلادنا تصحَّر الآن.

اختنــق الرجــل وانتحــب بــلا صــوت ووقــف مــادًّا يــده يصافحــه، متهيِّئًــا للانــصراف.

- لماذا لا تكمل حكايتك؟

- أنـت لا تسـتمع إليَّ. لـم تعُـد سـالم سـليمان الـذي قرأنـاه. سـأبحث عـن مسـجد أمـضي فيـه بقيـة عمـري. لقـد ضعـت وضاعـت مـنّي البـلاد.

وانــصرف بينمــا راشــد يجلــس في دهشــة مــن هــذا الــذي كان يــصرُّ أن يحــكي لــه حكايتــه، كيــف قــرر فجــأةً الانقطــاع عــن الــكلام. ورأى فــرح في ركــن الصالــة ينظــر إليــه ويهــز كتفــه، فاردًا ذراعيــه، مُبديًــا بــدوره عــدم الفهــم ثــم أسرع خارجًــا مــن البــاب

......

أتى بزجاجــة الويســكي. صــبَّ كأسًــا وأخــرج الكراســة الــتي بهــا تليفونــات البنــات وعناوينهــن. لــم تــأتِ الفتــاة الــتي حصلــت منــه عــلى المائــة جنيــه. اكتفــت بهــا عــن العمــل معــه. لــم ينتبــه إلى أنــه بالليــل، اتصــل بــأول فتــاة...

- آلو. أريد الآنسة غادة من فضلك؟

- أي غــادة؟ لدينــا ثــلاث غــادات، واحــدة شــاذة والثانيــة طبيعيــة والثالثــة تحــب فقــط الــكلام!

لقد اتصل ببيت دعارة فيما يبدو! طلب الرقم التالي.

- هل ممكن التحدث مع الآنسة مروة؟

- آســف. عندهــا ميعــاد مــع زبــون في الشــيراتون. ممكــن

تطلبهـا بعـد سـاعة.

مـا هـي حكايـة بيـوت الدعـارة اليـوم. أيكـون يهـذي؟ أيكـون هـذا كلـه بسـبب عـدم إنصاتـه باهتمـام لبـو عـلي؟ التالتـة تابتـة يـا أولاد الكلـب. طلـب الرقـم الثالـث.

- من فضلك أريد الآنسة نور.

- خـلاص ضلّمـت. البوليـس قبـض عليهـا. عندهـا إيـدز. تقـدر تشـوفها في المستشـفى الأمريكي...

تـرك السـمَّاعة تسـقط مـن يـده وقـام يمـشي خارجًـا مـن المكتـب. في الشـارع تدفَّقـت فيـه القـوة الـتي جعلتـه يمـشي بـلا قـدرة عـلى التوقـف. صـار صـوت ضاحـك بـين السـماء والأرض يـسري أمامَـه. إنـه صـوت فـرح المميـز لا يخطئـه، رأى النـاس تتدفَّـق في جلاييـب بيضـاء ولحـى طويلـة يُسرعـون ولا يبـدو الواحـد منهـم مُـدركًا لوجـود الآخريـن، ثـم ابتلعتهـم أزقـة لـم يفطـن لوجودهـا مـن قبـل، سرعـان مـا انغلقـت بأبـواب حديديـة عاليـة، أبـواب قـلاع قديمـة.

تلفَّـت خلفـه ليرى العمـارة الـتي اسـتأجر فيهـا مكتبـه، يعـرف أنـه لـم يبتعـد كثـيرًا، فكيـف تغـير المـكان عـلى هـذا النحـو، ورأى العمـارة في مكانهـا، هـو إذًا لـم يفقـد عقلـه بعـد، لكنـه لا يسـتطيع العـودة، فصـوت فـرح صـار جميـلًا يشـده بقـوة، ولمـا وضـع يديـه عـلى أذنيـه ازداد الصـوت، سـكن أذنيـه تمامًـا، والقـوة الـتي تدفَّقـت فيـه ليمـشي بـلا انقطـاع ازدادت الآن فصـار يجـري، وعـبر شريـط سـكة حديـد ظهـر فجـأةً أمامـه، وراح يخـوض بـين بيـوت واطئـة ونفايـات وجثـث حيوانـات

اختلطت بها بعد قليل جثث رجال وأطفال ونساء تُركت كثيرًا في الشمس والرطوبة فتفجرت بطونها وحطَّت عليها أسراب الذباب. كيف يرى ذلك كله والوقت ليل ولا أضواء من أيّ ناحية، يا إلهي! إنه النور ينسكب من السماء. إنه النهار قد أسرع بالحضور، ثم انتهى كل شيء إلى خلاء. صحراء، وليل ونجوم تنتشر في السماء، وقمر بدر. كيف ظهر النهار وكيف اختفى. هل حقًّا انشق الليل عن النهار ولو للحظةٍ أم هو النهار الذي انشق عن الليل الآن! كم مضى من الوقت منذ التقى بالرجل الغريب، بو علي؟ هل كان لعنة تلبس ثوب البشر؟ الأفضل أن يستريح، إنه مُتعَب بحقّ.

جذبته الرمال الطرية فجلس، تمدد واستراح إلى برودتها. أغمض عينيه وأغفى، ما أجمل النوم حين يكون سهلًا! يمكن الآن لكلب ضال أن ينهشني، ويمكن الآن لذئب جائع أن يأكلني لكنه نام. هذا مكان رائع جدير أن يحلم فيه الإنسان...

......

لم يكن حلمًا أيها الكاتب. سأتدخل أنا الآن وأنقذك. لا يمكن أن تكون على كل هذه الدراية بما يحدث، ثم إنني لا أحب لك أن تكذب. وأيضًا لماذا لا تتركني أكتب نفسي؟ ما الفرق بيني وبينك؟ كلانا كاتب. ثم إنني لا أحبك منذ رأيتك مع سالم، هل تذكر؟ كنت أنا أقرأ لكما ما كتبتُ، وأنتما تتحدثان عن امرأة تشاركتما في نكاحها في وقت واحد!

لـم يأتـني حُلـم واحـد في هـذا المـكان الـذي تـراه جديـرًا بتدفُّـق الأحـلام. جـاءني جَمَـلٌ فوقَه جَمَّـال حملني فـوق الجَمَل! أنزلـني أمـام بوابـة سـور مـن سـلك شـائك، تشـتعل فيـه النـار بـلا انطفـاء. «ادخـل مـن هنـا بسـلام»، قـال الجنـدي الأحمـر الـذي كان أيضًـا مشـتعلًا بالنـار مثـل الأسـلاك. «اخـتر شـيئًا واحـدًا تتفـرج عليـه» قلـتُ: اخـتر لي أنـت أيهـا الرجـل المشـتعل فأنـا غريـب. قـال: جنيـت عـلى نفسـك يـا غريـب. فكَّـرت أن أتراجـع وأختـار بنفسـي، ضـاع صـوتي في حلقـي، ورأيـت فـرح فـوق رأس الجنـدي المشـتعل يضحـك وهـو غـارق في المـاء، فمشـيت والخـوف يأخـذ بيـدي!

رجـل أسـود شـديد السَّـواد عـلى سيخ حديـديّ، وهـو لا يـني يلـوِّح بيديـه مـن الألـم، بينمـا اثنـان مـن الزبانيـة الضِّخـام يُمسـكان بالسـيخ مـن الناحيتـين ويشـويان الرجـل عـلى النـار، يـنزّ جلـدُه شـحمًا فـيزداد اشـتعال النـار تحتـه، وكلمـا بـدا أن الجلـد قـد زال والشـحم أيضًـا وأوشـكت النـار تطـول العظـام عـاد الشَّـحم إلى مكانـه!

وعـاد الجلـد وعـاد الـصراخ وعـاد الألـم! ولمـا كاد يُغـشى عـليَّ وقـف فـرح اللعـين أمامـي بابتهـاجٍ طفـوليٍّ مُدهـش مما أشـاع في روحـي البهجـة. أجـل. البهجـة نفسـها فمشـيتُ لأرى رجـلًا آخـر، أحمـر هـذه المـرة، يرتـدي نظـارة مـن حديـد مشـتعل ومربـوط إلى حائـط مشـتعل. عرفتـه عـلى الفـور، فشـغلتني معرفتـه عـن تعذيبـه. هـو الـذي يحـب أن يـأتي بزوجـات المعارضـين فيأمـر أن يُضربـنَ بالنعـال حـتى المـوت، وسـعيدات الحـظ منهـن يُطلـق عليهـنَّ الجنـود والضبـاط المصابـون بالسـيدا، ورأفـةً

بغير المعارضين يُطلق على زوجاتهم الضباط والجنود المصابين بالإيدز!

ولما قال له أحد معاونيه أن السيدا هي الإيدز ولكن باللغة الفرنسية أطلق عليه الجنود المصابين بالاثنين. وهكذا فرَّ الجميع إلى البلاد المجاورة، التي لم يكن حظها بأحسن من حظ بلدهم فضاع أكثرهم بين الحدود. يا إلهي! لم أعُد قادرًا على التحمُّل، ولم تعُد ضحكات فرح الطفولية تغريني بالتقدُّم، لكن ضحكةً جبارةً هزَّت الهواء الراكد، فنظرتُ يميني حيث مصدر الضحكة فرأيت الرجل، الذي اعتبر نفسه الأول والآخر، البداية والنهاية، مشبوحًا على حائط قصير، مشدودًا عليه، يرتخي نصفه العلويُّ أمامي! ويبدِّل بذراعيه في الهواء وهو لا ينقطع عن الضحك والابتهاج.

أخذني فرح الذي قفز إلى جواري من يدي، وجرينا لنستدير ونرى نصف الرجل الخلفي خلف الحائط. وجدت طابورًا من القرود الحمراء والخضراء والزرقاء الصغيرة تقف طابورًا وتعمل فيه على التوالي، وكلما بدا أنه أوشك على الموت توقفت القرود حتى تعود إليه عافيته، فتعود تعمل فيه من جديد، وكانت رائحة نتنة تملأ الفضاء تُطلقها القرود. هكذا أدركت فصرختُ وجريتُ إلى رائحة الماء، وكان هناك نهر يُرسل هذه الرائحة، إلا أن خراطيم رفيعة كانت تخرج منه، عشرات الخراطيم، كلها مُوصّلة بطلمبات في الماء وتنتهي على الشاطئ إلى أفواه عدد كبير من الرجال النائمين، وتخرج مرةً أخرى من أدبارهم لتعود

وتـنزل إلى النهـر. جـاءني صـوت عريـض يقـول: لا تجـزع هـؤلاء هـم الذيـن تحدثـوا كثـيرًا عـن المـاء والـزرع والنمـاء ثـم جففـوا ينابيـع الميـاه في الجبـال حـتى لا يجـد الثـوار ملاجـئ لهـم، وهـؤلاء هـم الذيـن أحرقـوا الـزرع في الأرض والأشـجار حـتى لا يختـبئ مـن الثـوار أحـد. كان أكثرهـم انتفاخًـا بالمـاء يتوسـطهم فتقدمـت إليـه، وهتـف فـرح: «الرجـل الأوحـد» وصفـق بيديـه. وتذكـرت كيـف كان الرجـل يأمـر أن يـؤتى إليـه كل ليلـة بفتـاة بكـر، فلمـا انتهـت الفتيـات الأبـكار أمـر الأطبـاء بترقيـع الفتيـات بأغشـية بـكارة تستنسـخها شركـة دواء سـويسرية بأسـعار خرافية، وطلـب أن يكـون الاستنسـاخ مـن ملكـة جمـال أوكرانيـا. لمـاذا أوكرانيـا؟ قـال لأن الفتيـات هنـاك لهـن جلـود أرق مـن الشَّـمع، مـن النسـيم الخريفـي، مـن مـاء نبـع وسـط الجبـال. والحقيقـة كانـت أن أوكرانيـا هـي البلـد الوحيـد الـذي زاره. كان مكروهًـا في كل الدنيـا ويخـاف الاغتيـال.

فجـأة رأيـت شـابًّا يـأتي مهـرولًا حامـلًا كتابًـا هـو ديـوان شِـعر ويجلـس عنـد رأس الرجـل يتلـو بسرعـةٍ منـه فصـار المسـكين يتألـم مـن ضغـط المـاء عـلى بطنـه ووزن الشِّـعر عـلى رأسـه، وتأسـفت لأنـه كان شـاعرًا في الحقيقـة يمـلأ شـعره سـاعات البـث التليفزيـوني والراديـو. وهـرول شـاب آخـر قادمًـا يحمـل كتـب شِـعر كثـيرة كلهـا سبق وأن ألَّفهـا الرجـل الـذي صرخ «ابعـدوا عـنِّي الشِّـعر وخلـوا المـاء» وعـلا صـوت بكائـه فأبـكاني، ولمـا خِفـت أن يشـدَّهم بـكائي بعيـدًا عـن بكائـه فيخلطـوا بيـني وبينـه وأحـلّ مكانـه ويحـلّ مـكاني، وتذكـرت مـا جـرى لي إذ أحمـل صـوت سـالم والنـاس تـراني سـالم رغـم أني أحمـل وجـه راشـد،

جريت ورأسي يكاد ينفجر لأني فكرت أن أرى المأمور والضابط آكل العصافير هنا فيعرفاني. خفت فجأةً أن يكونا هُما حرَّاس المكان. والصوت الذي كان منذ قليل يشدني إلى الأمام عاد يشدني إلى الخلف، وتقافز حولي فرح يضحك عليَّ من خوفي هو الذي يحمل وجه سالم الجميل فعادت إليَّ شجاعتي ومشيت ناحية الباب الذي سبق أن دخلت منه. وقررت أن أخرج قاتلًا أو مقتولًا من هذا الجحيم.

لم يخرج. فقط أرجأ بقية الجحيم. لقد اشتد عوده في الكتابة، ولا يفاجئني خبثه. لقد تلبَّسته رُوح سالم سليمان، ولم يكن سالم بالكاتب السهل. رحمة الله على الجميع!

عاد إلى بيته يرتجف، رغم أن شيئًا من بهجة الكتابة كان يخالسه، إذ أظهر أشياء وأخفى أشياء، وإذ تعلم الشفقة بالقارئ، وإذ تذاكى في إقامة المعمار! وفي الشارع المُفضي إلى البيت تاقت نفسه لرؤية الرجال ذوي اللحى والجلابيب البيضاء الذين أُغلِقَت عليهم الأزقة. لا بُد أنهم يذهبون إلى الصلاة، ولن يضيره أن يذهب معهم. هذه المعاصي التي يرتكبها مع النساء ما كان عليه أن يرتكبها. ما رآه الليلة الماضية يدفعه إلى البكاء، وليس أطهر للنفس من البكاء بين يدي الله. إذا لم تكن هناك شفاعة لأولئك الرجال فمن يشفع له هو الذي لا يشعر أحد بوجوده، وتناهى إليه صوت أم كلثوم من الفضاء، تائب تهمى دموعي ندمًا، سيغسل ذنوبه بالدمع الحار، وسيحب أعداءه، وسيرضى

بما قسم الله له، ضياع أسرته قضاء وقدر، وضياع فلوسه حكمة إلهيّة، وحرّاس قسم الشرطة قدّيسون ونبلاء، والمجرمون يتعذبون في الدنيا لتخف كفّة ذنوبهم في الآخرة، ولما لم يجد الرجال البيض اغتمّ، لكنه قرر أن يبحث عن مسجد قريب، فما أكثر المساجد في البلاد! وفي فعل كوني لا يحدث إلا للمصطفين انزاحت كل البنايات من حوله، خاف من العودة إلى الصحراء، وإلى الليل، لكنه رأى بناءً قديمًا جدرانه من حجر ضخم قديم حائل، جامع أثريّ ولا شيء آخر، كيف قام الجامع فجأةً أمامه وكيف أنه قديم أيضًا! لا يهم. المهم أن لا يعود إلى الوراء، لا يدخل الجامع فيجد نفسه في عصر آخر. لو حدث ذلك يتأكد أنه صار مجنونًا حقيقيًّا، ثم إنه لا يحب أن يُعيد الروايات القديمة، والذين يريدون فهم الحاضر بالعودة إلى الماضي في رواياتهم عاجزون عن تقديم روايات حقيقية. دخل المسجد على أطراف أصابعه. هل هو حقًّا مسجد؟ لم يتأكد بعد. على الأرض حُصُر قديمة بائسة ممزقة، وفي المواجهة منبر خشبيّ قديم أيضًا، يتقدم نحو المنبر ليتأكد من وجوده. هو اليوم وسط الخيال العظيم، ولاحظ فوق الجدران شِباك عنكبوت، ولما وطأ الدرجة الخشبية الأولى للمنبر تهاوت تحت قدمه. تفتتت. حاول أن يصعد الدرجة الثانية فتهاوت وتفتتت أيضًا، لمس الدرابزين فانسحق تمامًا تحت أصابعه. تهاوى المنبر كله وصار رمادًا أسود. ولما كانت فوقه مئذنة تطلّع إليها فرآها تغادر مكانها وتصعد إلى السماء. كانت طيور تأتي من كل ناحية ترفعها على ظهورها وتمضي

صاعـدةً. لا فائـدة. ليـس أمامـه مـن طريـق مفتـوح إلا العصيـان. رجـل تفـر المسـاجد منـه ليـس لـه بـاب للتوبـة، هـو المسـكين الـذي لـم يرتكـب آثامًـا تسـاوي شـيئًا قياسًـا بمـن عرفهـم في حياتـه، أيّ قـوة جبَّـارة يحتاجهـا ليعيـش، وهـل لـو تأكـد للنـاس أنـه لـم يقتـل سـالم سـليمان سـتتغير أحوالـه؟ لكـن لا بُـد أن هـذا العقـاب الإلهـيّ الكبـير عـلى ذنوبـه الصغـيرة، لأن اللـه يحبـه ولا يريـده أن يسـتمر سـادرًا في الخطيئـة. الذيـن يكرههـم اللـه يـترك لهـم حبـل الدنيـا المجـدول مـن الغوايـات. هـو إذًا قدِّيـس، أو مـشروع قدِّيـس، وأكـثر مـن ذلـك، مظلـوم ومُهـان. ومـا جـرى لـه الآن إشـارة كي يعـود إلى الطريـق الصحيـح..

مـشى مطأطـئ الـرأس يلفُّـه الحـزن. وفكَّـر لحظـةً أنـه لـن يصـل إلى بيتـه أبـدًا، لكنـه رأى كيـف لـم يبتعـد كثـيرًا عـن البيـت. دخـل مـن البـاب إلى الطرقـة المظلمـة، فسـمع صـوت غـلام يـصرخ ويشـتم، يـا بـن الكلـب يـا وسـخ، وفي بـئر السـلم رأى رجـلًا ضخمًـا يـبرك بقـوة فـوق الغـلام الـذي يحـاول باسـتماتة أن ينعتـق مـن تحتـه. لـم يكـن ظاهـرًا مـن الغـلام غـير ذراعيـه يتحـركان في الفضـاء. قبـل أن ينقـض عـلى الرجـل كالمجنـون أدرك أن الصـوت الـذي سـمعه هـو صـوت فـرح. فرح هـو الـذي تحـت الرجـل، لا يمكـن أن يكـون فـرح هـو الرجـل، ورفـع الرجـل إلى أعـلى وأطبـق عـلى عنقـه. كاد بالفعـل يقتلـه إذ سـمع حشرجـةً في حلقـه، لكـن داهمتـه رائحـة كريهـة تخـرج مـن فـم الرجـل فتركـه. جـرى الرجـل مـن البـاب بسرعـة، ورأى فـرح يتكـوَّم مرعوبًـا يحـاول أن يسـتر جسـده بيديـه. فـرح. فـرح. تعـال يـا فـرح. أنـت طفـل حقيقـي إذًا. لسـتَ خيـالًا يحمـل وجه

سالم وتطاردني إذًا. إنك لا تظهر لي وحدي، بل تظهر للناس أيضًا. أنت لستَ كذبة إذًا! لكن ما الذي يمنع حقًّا أن يكون هذا غلامًا آخر تلبسته رُوح فرح وشكله. غلامًا سبق له أن قتله فرح أو قتل هو فرح. تعال يا فرح. تعال. لكن فرح جرى من أمامه مغادرًا المكان. صعد هو إلى مكتبه مذهولًا. ما إن فتح الباب حتى سمع صوت ضحكاتٍ تأتي من الغرفة الداخلية. لو كان الرجل الشمالي سأقتله. ولا يهمني حتى أن اسمه بو علي. مثل هذا النوع يقابلك فجأةً في الطريق ليقلب لك حياتك. لكن الصوت أنثويّ! تعال. سمع نداءها. إنها الفتاة الرقيقة التي أحبَّت أن تعمل مومسًا مع السيَّاح العرب أتت اليوم. كانت عاريةً، وكانت تضحك. ولما اقترب منها مدَّت يدها تشدّه من بين فخذيه.

- دعيني ليس بي رغبة اليوم.

وانتبه فجأةً:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟

ضحكتْ...

- فرح هو الذي أدخلني.

- فرح. كيف عرفتيه؟

- وهل تظن أنه يخصك وحدك!

وقبل أن تصل به الدهشة إلى غايتها أردفت:

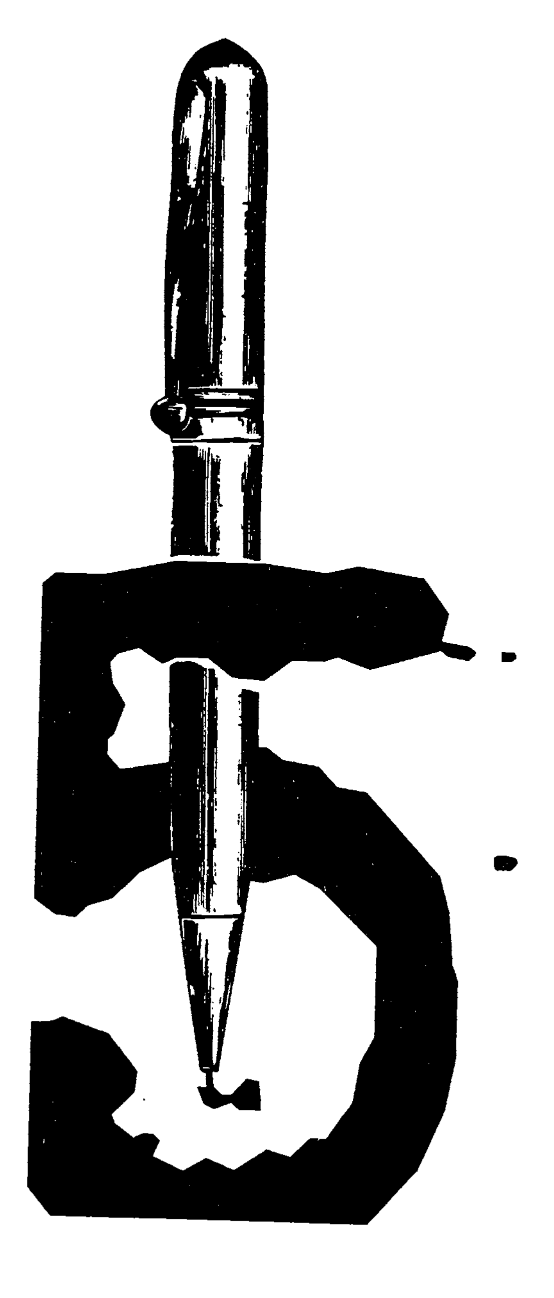
- إنه لطيف جدًّا. يصحبني إلى السيَّاح العرب الذين

تُخفيهم عني.

وسمع ضحكات رفيعة في الصالة خلفَه. لقد عاد فرح ووقف عاريًا. لاحظ أن له ذكرًا كبيرًا لا يتناسب مع حجمه. اقترب فرح منه وأزاحه بيده من ساقه وقال.

- دعني أنا أعمل بدلًا منك اليوم.

ورأى الفتاة مبتهجة جدًّا وهي تنظر إلى فرح.



- آلو
- آلو

- Parlez-vous français?
- Non
- Ah; then you speak English ?
- No.

- أو هو هو هو. إذًا أنت تتكلم العربية فقط؟
- أرجوك قل لي ماذا تريد لأني مزدحم جدًّا.
- مزدحم! هئ هئ هئ. هل أنت باص عمومي؟

- أشكرك على أدبك. مزدحم أعني مشغول. على السرير امرأة ملتهبة، وأوراقي كلها مبعثرة على الأرض، والأدراج مفتوحة.. هل رأيت زحامًا أكثر من ذلك؟

أدرك فجأةً والآخر يضحك على الناحية الأخرى من الخط أنه لا يعرفه، وما كان له أن يسترسل معه في الحديث هكذا. سأله:

- قل لي لو سمحت من أنت؟

- أنا... أنا جانيت.

ارتبك...

- فتاة حضرتك؟

- طبعًا. هل ترى شيئًا آخر؟

- صوتك خشن جدًّا.

- أشكرك بدوري على أدبك.

- معذرةً. لقد تركتِني أحدِّثكِ كرجل. شديد اعتذاري. والآن ماذا تريدين يا آنسة جانيت؟

- حضرتك مدعو لحضور الحفل السنوي لسفارتنا بمناسبة رحيل مسئولة القسم الإعلامي. أنت تعرفها. مدام تيريزا..

- مدام تيريزا؟!

تساءلَ وهو يفكِّر...

- أجل. إنها صديقتك من زمان.

- طيب. طيب. كيف عرفتم عنواني الجديد وتليفوني؟

- يـا أسـتاذ سـالم خـبر عودتـك يمـلأ البـلاد. وعنوانـك وتليفونـك تنشرهمـا الصحـف كل يـوم. الصحـف تتبـارى في حـثّ النـاس عـلى إرسـال مشـاكلهم إليـك وتدعـوك للعـودة إلى تحريـر بابـك الصحفـيّ الشـهير «قلـبي معـك وعقـلي عليـك».

سـكتَ لحظـاتٍ. تمتـمَ. «وداد» بنـت الكلـب لا تـزال تنـشر الأخبـار!

سألته:

-هل تقول شيئًا؟

- لا..

لكنـه اكتشـف أن جانيـت أغلقـت الخـط مـن قبـل، وأن الـتي تسـأله هـي الفتـاة الملتهبـة عـلى السريـر في الغرفـة الداخليـة.

كانـت قـد نهضـت مـن نومهـا وبـدأت تلبـس ملابسـها عـلى مهـل. جـرى إلى الكيلـوت الـذي بـين يديهـا قبـل أن تُدخـل قدميهـا فيـه وخطفـه منهـا. ابتسـمت:

- غريـب أمـرك. هـذا هـو الكيلـوت العـاشر الـذي تأخـذه مـني!

ابتسم... قال:

- هـذا يعـني أنـك أمتعتِـني أكـثر ممـا كنـت أتوقـع. لـم آخـذ غـير كيلـوت واحـد مـن كل بنـت قبلـك.

سـكتت متحـيرةً. هـزَّت رأسـها وهـي تدخـل البنطلـون في

وسـطها. فوقـه ارتـدت القميـص والجاكيـت القصـير.

- هل آتي غدًا؟

- كلميني بالتليفون. سأخبرك ما إذا كنت أحتاجك أم لا.

قبَّلته وخرجتْ...

وجـد نفسـه وحـده فانكـبَّ جالسًـا عـلى الأرض بـين الأوراق المبعـثرة والأدراج المفتوحـة للمكتـب الخشـبي وراح يقلِّـب فيهـا مثـل مجنـون.

......

الـذي كتبـه سـالم مـن قبـل عـن تيريـزا لـم ينـشره. هكـذا أخـبره وهمـا يمشـيان بـين ثنيـات وتـلال الجبـل. هـذه الأوراق الـتي يبحـث فيهـا أوراقـه هـو وليسـت أوراق سـالم، لكنـه لـم يكتـب كثـيرًا هكـذا. هـل تكـون هـي أوراق سـالم انتقلـت إليـه يومًـا مـا! هـو يعـرف تيريـزا جيـدًا. هـل عرفهـا قبـل سـالم؟ بعـد سـالم؟ كانـا يتحدثـان عنهـا معًـا، يكـرران الجمـل نفسـها، القصـة نفسـها. مـن سـمع القصـة مـن الآخـر في البدايـة؟ مـن تلبَّسـته القصـة في النهايـة؟ مؤكَّـد أن سـالم كان دائمًـا يخدعـه، كان يحـوِّل كل حكاياتـه الـتي يرويهـا لـه إلى قصـص يصبـح، هـو سـالم، مؤلفهـا. لكنـه لـم يدخـل غرفـة سـالم في الفنـدق بعـد اختفائـه. إذًا هـو لـم يأخـذ منـه ورقـة واحـدة، لكنـه عـاد بـورق كثـير مـن البلـدة الصحراويـة فهـل دخـل غرفتـه ولا يـدرى الآن!

اسـتراح إلى الجـدار بعـد أن يئـس مـن العثـور عـلى شيء مفيـد.. تيريـزا تيريـزا. هـل لا تـزال تحتفـظ بقـوام سـالومي؟ ريتـا

هيوارث الجميلة ماتت مجنونة بالزهايمر. القوام الفارع والخصر الدقيق لتيريزا، لسالومي، لريتا عينان من الغواية وشفتان من الشهوة. تيريزا كانت تتكلم العربية أحسن من أهلها لكن أحبها وهي تتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية. إنها تتكلم الألمانية برِقّة. كيف صارت ألمانيا يومًا ما بلدًا نازيًّا؟ تيريزا رقيقة لكنها كثيرًا ما وضعت السدود أمامي. تدعوني لبيتها ثم تقدِّم لي رجلًا ضخمًا وتقول «زوجي». يذهب الرجل لينام مبكرًا وتبتسم وتقول عنه أنه طفل شرب اللبن وذهب إلى سريره. صورته الضخمة تظل أمامي. تمضي بقية السهرة تضحك تيريزا وصورة الرجل الضخم أمامي. تقول لي: «انظر كيف امتلأت أركان البيت كلها بالزهور، كل هؤلاء عشَّاقي». وترقص تيريزا بين الزهور وتقبِّلني فتقفز صورة الرجل الضخم أمامي. كيف ينام كل هؤلاء العشَّاق مع تيريزا؟ ألا تقفز أمامهم صورة الرجل الضخم؟ كيف حقًّا أنام مع تيريزا وفي الحجرة القريبة ينام الرجل الضخم الذي تقف صورته أمامي؟ آخر مرة زرت فيها تيريزا كانت معها الممثلة غير المشهورة التي كانت تأتيني أخبارها في الصحف وأنا خارج البلاد بعد ذلك. كانت أخبارها في كل الصحف. في الصفحات الأولى والأخيرة. كانت جميلةً جدًّا، لكني لم أقتنع بكونها ممثلة في أي فيلم شاركتْ فيه. همستْ لي تيريزا في أذني: «إنها تنام مع طوب الأرض، تستطيع أن تأخذ راحتك». وتركتنا وذهبت تحضر لنا كؤوس الويسكي. لم أكن أريد أن آخذ راحتي، كنت أريد أن تترجم لي تيريزا قصة وتنشرها في بلدها. لعله سالم هو الذي زار تيريزا

وقالـت لـه أن يأخـذ راحتـه، لكـني زرتهـا وطلبـت أن تترجـم لي قصـة، لعلّنـا ذهبنـا معًـا، قالـت لـه شـيئًا وقالـت لي شـيئًا. أنـا أقـرأ الآن مـا كتبـه سـالم. لعلـه اختلـط بمـا كتبتـه. رأسي سينفجر. لقـد كانـت الممثلـة جالسـة في خجـل التلميـذات تفـرك يديهـا وأصابعهـا فمـددتُ يـدي وأمسـكتُ بيدهـا فمالـت بسرعـة برأسـها عـلى كتفـي ولامـس شـعرها الناعـم عنقـي، وشـممتُ رائحـة بصـل! أنقذتـني تيريـزا وعـادت بالويسـكي. قالـت للممثلـة: «خـدي بالـك دا بتـاع نسـوان». والحقيقـة كانـت واضحـة، أن تنـشر لي تيريـزا قصـة باللغـة الأجنبيـة بعـد أن ضاقـت عـليَّ فـرص النـشر بالعربيـة..

لـم يكـن يقـرأ ولا يكتـب. تأكـد لـه أنـه يهـذي وهـو مرتكـن إلى الحائـط. رأى فـرح يضحـك في ركـن بعيـد مـن الصالـة. كان عاريًـا تمامًـا. ولاحـظ أن آلتـه صـارت صغـيرةً جـدًّا. إنـه طفـل حقيقـي. فـرح يعـرف أنـني سـأموت ويشـمت فيَّ. لكنـه لاحـظ مظروفًـا ينزلـق إلى الصالـة مـن تحـت بـاب الشـقة المغلـق. تناولـه وفتحـه. وجـد فيـه كارت الدعـوة الـتي حدثتـه عنهـا جانيـت. بهـذه السرعـة يقـضي الأجانـب أعمالهـم. وكان فـرح لا يـزال يضحـك في الركـن. هـز هـو رأسـه ودخـل الغرفـة لينـام، وبينمـا هـو مُسـتلق عـلى السريـر رأى مـن خـلال البـاب المفتـوح فـرح يغـادر الشـقة عاريًـا مـن بابهـا المغلـق فأجهـش في بـكاء مريـر..

......

- تعالى جنبي..

أفسحت له مكانًا جوارها على المقعد، وأردفت:

- أنا عارفة أنك تريد أن تجلس إلى جواري من زمان.

وربتت على فخذه بيدها اليسرى. إنها الممثلة ذات الوجه الطفوليّ الجميل. لا ينساها.

كانت جالسة كما رآها زمان، في خجل التلميذات، فقط ازدادت سِمنةً وبان على وجهها ذُعر خفيف، ولا تهب منها رائحة البصل!

تيريزا تدور بين الضيوف مثل فراشة فرحانة، طويلة نحيلة القوام كما كانت. مؤسسة على عجُز قوي وساقين طويلتين، وثدياها نافران مثل فتاة بكر.

كأنه لم تمر عشر سنوات على تيريزا. تيريزا وحدها دون العالمين..

فرنسيون وإنجليز وألمان وأمريكان ويهود ومصريون وعرب وكُتَّاب وصحفيون ورؤساء تحرير، والجميع يقتربون من الممثلة فتعطيهم يدها يقبلونها باسِمينَ. وأقبل من الشُّرفة طفل صغير ارتبك راشد لمرآه إذ ظنه فرح، لكن الطفل له وجه آخر، ارتمى في أحضان الممثلة التي قالت «أخي الصغير» وراحت تربت على ظهره وهو دافن رأسه بين فخذيها، بينما لا تزال يدها التي ربتت بها على فخذ راشد في مكانها على فخذه. كانت الحرارة قد شملت جسده كله، وبدأت تيريزا فاصلًا من الرقص الشرقي على موسيقى يونانية. موسيقى ثيودور إكس الشهيرة في فيلم زوربا،

واشـتعل الحـاضرون تصفيقًـا.

هـدأت الموسـيقى وراحـت سـالومي تتهـاوى عـلى مقعـد قريـب منهـا والعـرق يتفصَّـد عـلى وجههـا فيلمـع وجههـا أكـثر تحـت ضـوء الثريـا الكبـيرة، وانفـرد كل رجـل بامـرأة في جانـب يتناجيـان ولـم يبـق جالسًـا غـيره والممثلـة الـتي صـارت شـهيرة وأخيهـا..

- أنا أعرف كل مكان في هذه الشقة.

قالت الممثلة، فارتبك، قال:

- أنا أيضًا أعرفها جيدًا.

أقبلت تيريزا نحوهما، وقالت:

- مكانكمـا محفـوظ. لـم يدخلـه أحـد منـذ عـشر سـنوات. منـذ غيابـك يـا سـالم يـا حبيـبي.

لا فائـدة. لـن يعـرف أحـد أنـه راشـد أبـدًا. لـن يعـرف أحـد بذلـك. شيء مـا في الكـون يجعـل النـاس تناديـه بذلـك، وليـس الجميـع متآمريـن عليـه. لقـد نظـر في المـرآة في الصبـاح وتأكـد لـه أنـه لا يحمـل مـن سـالم إلا صوتـه، إن صورتـه، هـي صـورة راشـد رشـاد لـم تتغـير، لكـن لا فائـدة.. ثـم قالـت تيريـزا:

- نحن نساعدها على الخروج من البلاد.

- لقـد حاولـت أن أقنعـك بذلـك، لكنـك فضلـت الدولـة العربيـة. هـل نسـيت؟

لم يرد...

- كانـت لديـك فرصـة. كنـتَ أصغـر سـنًّا. حـد يسـيب مـصر ويـروح الجبـال! أوروبـا يـا حبيـبي. أوروبـا حـد يرفضهـا؟

هز رأسه عاجزًا عن الفهم.. قالت تيريزا:

- إنهـا حكايـة طويلـة. يمكـن لهـا أن تحكيهـا لـك في مكانكمـا القديـم..

ابتسـم ووقـف فوقفـتْ الممثلـة وأخوهـا. مشـوا في طرقـة طويلـة أسـلمتهما إلى غرفـة صغـيرة. كان خائفًـا. مـاذا سـيحدث لـو وجـد خلـف بـاب الغرفـة بابًـا خلفـه بـاب خلفـه بـاب إلى مـا لا نهايـة.. هكـذا كان يشـعر كلمـا عـرف أن أحـدًا سـاعدته تيريـزا عـلى اللجـوء السـياسي. هـل لا زالـت تفعـل ذلـك! كان هـو سرها ولـم يكـن غـيره يعـرف. هـل كان ممكنًـا أن يفعـل ذلـك؟ لـم يكـن هنـاك سـبب يمكنـه اسـتغلاله. هـل كان يمكنها أن تسـاعده دون أي سـبب؟ كان طموحـه صغـيرًا جـدًّا أن تسـاعده في ترجمـة قصـة قصـيرة لـه إلى الألمانيـة. مـاذا يحـدث لـو أسـلمه البـاب الأخـير إلى الصحـراء مـرة أخـرى، كل مـرة كان يتخيـل أن البـاب الأخـير سيسـلمه إلى فضـاء لا نهـائيّ، إلى الجحيـم الـذي رآه مـن قبـل! هـذه الممثلـة تريـد مغـادرة البـلاد. إنـه يشـم رائحـة سياسـة كبـيرة في المـكان وهـو يكـره السياسـة. ثـم إنـه غـير قـادر أن يـرى أحـدًا يتعـذب مـرة أخـرى.

- مالك؟

سألته.. أجاب:

- لا شيء..

- أنت ترتعش!

- أبدًا. الحمد لله ليس للغرفة غير باب واحد.

ابتسمت مندهشةً..

- وهل للغرفة دائمًا أكثر من باب؟

- أحيانًا.

هـزَّت حاجبيهـا إذ لـم تفهـم مـاذا يقصـد بالضبـط. نظـرت إلى الغرفـة الـتي لـم يكـن فيهـا غـير منضـدة سـوداء بيضاويـة بـلا مقاعـد ومرايـا بلجيكيـة قديمـة وسـط أطـر خشـبية مذهبـة عـلى الجـدران وقالـت.

-كما تركناها أول مرة.

لا يذكـر أنهمـا دخلاهـا معًـا. تيريـزا تهـذي والممثلـة تهـذي أيضًـا. لكـن لا بـأس. ورنـت منـه نظـرة إلى أخيهـا فقالـت:

- لا تخشاه، إنه يحب اللعب.

وابتســمت ابتســامتها الطريــة المتهافتــة الــتي تــكاد تقــع بشــفتيها عــلى فــم مــن يراهــا، وقالــت:

- دائمًا كنت تأتيني مباشرةً. لم تحاول أن تراوغ مرة.

كان يعـرف أنهـا تقصـد بذلـك طريقتـه في الـكلام، وضوحـه ومباشرتـه وذهابـه إلى الهـدف بسرعـة. هكـذا كان سـالم سـليمان حقًّـا. وفي لحظـةٍ أحـسَّ أنـه لا يريـد أن يعـرف قصـة هــذه المـرأة، ولا لمـاذا تريـد مغـادرة البـلاد. أمسـكها مـن ذراعهـا وأدارهـا فاسـتدارت وهـي تقـول بهلـع خفيـف:

- «مالك. هاتعمل إيه؟ أنا ما أقصدش كده، أنا عايزاك تسمعني.. تساعدني».

لكنه كان قد أمالها فوق المنضدة ثم ضغط بهدوء على قفاها بكفه اليسرى فمالت أكثر، ولدهشته رأى أخاها كما قالت يرفع فستانها إلى ظهرها..

- شكرًا لك...

قال له مبتسمًا بينما راح الغلام «أخوها كما قالت» يشد الكيلوت عن أخته فظهرت مؤخرتها أمامه شديدة الاستدارة، خشنة قليلًا لكنها تشع ضوءًا أبيض! كانت سُفن اللذة تحمله إلى الفضاء على فرس مجنَّح تطيِّر ثيابه حوله وخلفه، وفوق رأسه مظلَّة من العصافير، لا ليست العصافير، إنه يخاف أن يظهر الضابط، لقد قفز إليه الآن. هل لأن كل من يأتي هنا يريد الهرب؟ مظلَّة من الفراشات الملوَّنة... إن ما يصعد منها ويمضي في أوردته الآن لَسُفن من الفرح المشتعل تخلعه عنها لتُعيده فيها. فِعلان متضادَّان في وقت واحد، ذهاب وغياب، ظلام حوله ونور داخله، ماء ونار!

وهي تموء وتلوي وترغي وتبربر وتشخر وأخوها «كما قالت» يقف قريبًا يضحك. وفي المرآة أمامه كانت عيناها مغلقتين لكن ينسكب منهما الدمع وتعض شفتها السفلى وتفرد ذراعيها تمسك بالمنضدة من الناحيتين وتكاد المنضدة تتزحزح، ثم فجأةً انزاحت المنضدة من مكانها فكادت تصطدم بالمرآة أمامها من أثر ضغطه عليها، ومن

أطرافـه خـرج الأذى والتعـب اللـذان في جسـده.

- مبسوط؟

قالـت وهـي لا تـزال عـلى وضعهـا، لكـن تهـدَّل شـعرها حـول رأسـها وابتـلَّ بالعـرق، وكان هـو لا يـزال فوقهـا رغـم همـوده.

- جدًّا..

- لقد نسيت القصة.

- أيّ قصة؟

- قصتي..

- أنا أيضًا نسيت!

سـكتت.. بـدا لـه أنهـا قـد ماتـت. تراجـع مذهـولًا إلى البـاب وتجـاوزه إلى الطرقـة المفضيـة إلى الصالـة. تناهـى إليـه صخبهـا وموسـيقى هادئـة. تيريـزا ترقـص في بـطء وسُـحُب دخـان السـجائر والسـيجار تمـلأ الفضـاء فـوق الـرؤوس. مـا إن رآه الجميـع حـتى توقفـوا وراحـوا يضحكـون ويشـيرون إلى بنطلونـه. انتبهـت تيريـزا وضحكـت بقـوة. كان البنطلـون نازلًا حـتى قدميه، اقتربـت تيريـزا منـه وانحنـت ترفـع لـه البنطلـون وتغلـق أزراره. امتـدت لـه يـد بمنديـل ورقيّ كبـير. كانـت يـد الممثلـة. تنـاول منهـا المنديـل غـير مصدِّق، ورأى أخاهـا لا يـزال واقفًـا وجهـه الـبريء بـين فخذيهـا وهـي تربـت عـلى ظهـره بيدهـا اليـسرى. إنهـا لـم تـبرح مكانهـا بعـدُ فمـع مَـن كان بالغرفـة!

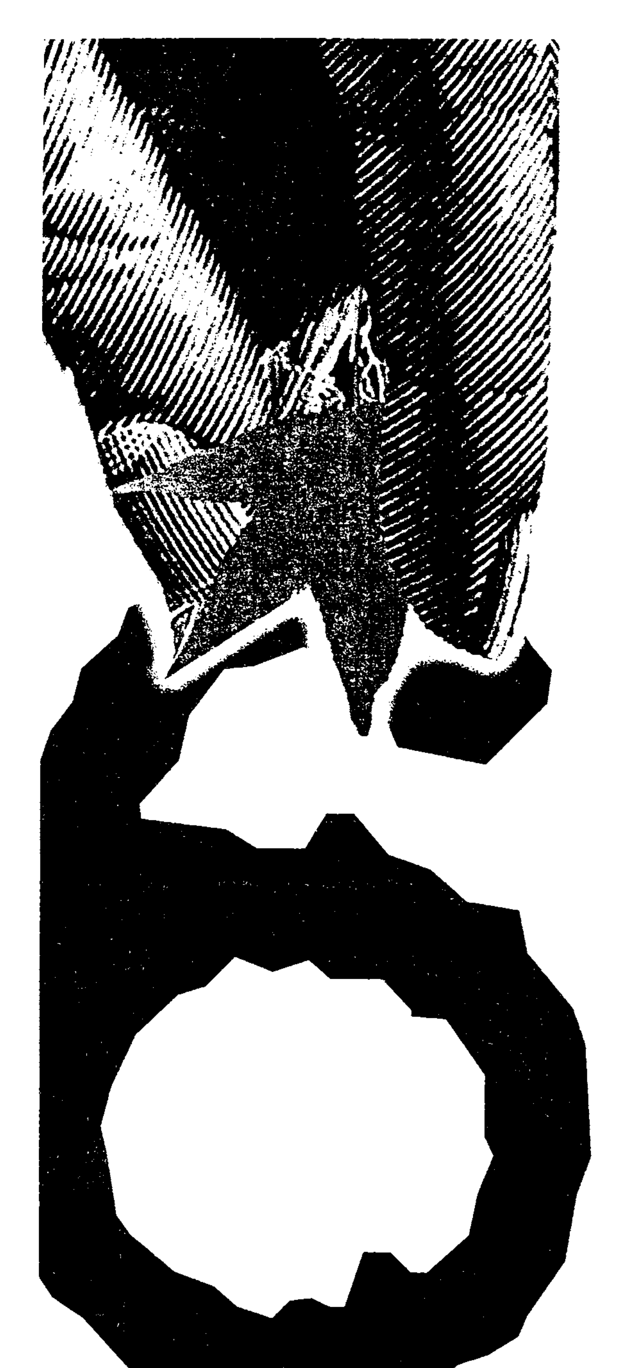
- اقعد هنا جنبي حتى أحكي لك قصتي. لا تهرب منّي.

جلس كالمسحور. ودون أن يقصد نظر ناحية باب الصالة فرأى الممثلة تمر من أمامه في طريقها إلى باب الشقة الخارجيّ الذي فتحه لها فرح ووقف جواره منتظرًا خروجها ويضحك..

- هل تسمعني أم أرسلها إليك في خطاب؟

سكت قليلًا وقد وضع رأسه بين يديه يفكر من هو بالضبط ومَن كل من يراهم! ثم قال يائسًا:

- تعالي مرة إلى البار. برج العذراء. هناك تكتمل القصص.



- 6 -

لماذا كلما استقلَّ تاكسيًا وجده يتحرك بلا سائق! مسح جبهته بيده اليسرى. فكَّر أنه قد آن الأوان أن يركب سيارته. ليس معقولًا أن يخشى ركوبها كل هذا الوقت.. لكنه سمع صوت السائق:

- إلى أين يا أستاذ؟

عاد رأس السائق إلى جسده إذًا. بل ها هو السائق يبتسم. لكنه لا يرى قدميه. لا يرى نصفه الأسفل، الأفضل أن ينظر إلى الشارع.

- إلى الميدان الكبير..

كان المطر قد انقطع منذ قليل. الشوارع خالية. لقد استمر المطر ينسكب على الدنيا سبعة أيام كاملة لم يغادر فيها مكتبه. لم تأت بنت من البنات. لم تأته وداد، لم تتصل به أيضًا بالتليفون. لعلها سافرت إلى مكان ما. لعلها نسيته. فجأة داس السائق على الفرامل بشدة فتوقف

التاكسي منزلقًا بعد أن كاد يدور حول نفسه دورة كاملة. لم تكن هناك إشارة مرور. وقبل أن يسأل السائق لماذا توقف على هذا النحو رأى طابورًا من الأيور الصغيرة يعبر الشارع!

- ما هذا؟

تساءل في جزع. أجاب السائق وهو يضحك:

- ألا تعيش معنا يا أستاذ؟ ألم ترَ ذلك من قبل؟

سكت. انتهى عبور الأيور ورآها تأخذ طريقها إلى الرصيف المحاذي للنهر، ثم رآها تنزل وتختفي باتجاه الماء. واستمر التاكسي في طريقه، وهو لا يصدق. شمله الصمت وشمل السائق أيضًا، ولم يعد لحركة التاكسي صوت... وسكن الكون كله.

- أنزلني هنا.

قال وهو يقدِّم للسائق ورقة مالية فئة الخمس جنيهات. ابتسم السائق وقال:

- حمدًا لله على السلامة يا سالم بك. نوّرت البلد. قريبًا سأزورك في الجورنال. عندي مشكلة كبيرة جدًّا إذا نشرتها سوف تهزّ البلد.

ثم ابتسم للسائق الذي استمر يتكلم..

- منذ عودتك وأنا أتابع مقالاتك. البلد بدون «قلبي معك وعقلي عليك» كانت فقيرة جدًّا.

وتحرك السائق بالتاكسي، دون أن يتقاضى منه شيئًا. تجمَّد

راشـد في مكانـه لحظـاتٍ. عـاد البـاب الصحفـي للظهـور إذًا، هـا هـو السـائق يؤكـد ذلـك. مـن الـذي يحـرر البـاب عوضًـا عنـه ويضـع توقيعـه عليـه؟ لا بُـد أن هـذا البلـد امتـلأ بالمجانـين. الجميـع فيمـا يبـدو ينتقمـون منـه وهـو مسـكين لـن يسـتطيع أن ينتقـم مـن أحـد.

البـارات هـي أحسـن مـكان للـدفء في الشـتاء، والبيـوت السـعيدة أيضًـا. قـال لنفسـه ذلـك وهـو يدفـع بـاب البـار ويدخـل. قابلـه دفء حقيقـيّ ورأى سُـحب الدخـان فـوق رؤوس الجالسـين. في الركـن البعيـد كانـت وداد تجلـس بـين ثلاثـة أشـخاص، مـا إن رأتـه حـتى وقفـت وصرخـت:

- سالم سليمان. تعال. تعال... كلنا في انتظارك يا أستاذ..

ابتسـم. كان صاحـب الـشيء جالسًـا بعيـدًا عنهـم كعادتـه، وكان شـيؤه يمتـد إليهـم ويحتـل طرفُـه مكانًـا عـلى المنضـدة أمامهـم.

- إمسك انت.

قالت وداد وهي تناول الشيء للرجل الذي ظهره إليه.

ما إن جلس حتى كاد يقف في فزع.

- اجلس يا أستاذ سالم. لا تندهش.

قـال ذلـك الرجـل ذو الوجـه الأحمـر واللكنـة الشـمالية، إنـه بـو عـلي الـذي قابلـه مـن قبـل، ثـم أضـاف الرجـل:

- لقد ذهبت إلى كثير من البارات وذهبت إلى مكتبك أكثر من مرة فكان مغلقًا دائمًا. دعني أقدِّم إليك السيد الزعيم.

وأشار إلى الرجل الذي أسلمته وداد الشيء من قبل، والذي بدوره انشغل بصبّ البيرة في فم الشيء، لكنه بدا حزينًا بحقّ.

نظر سالم إلى بقية الجالسين في البار، ناس لم يرهم من قبل، مشغولين في الأحاديث، حتى إنهم لا يرون ما يحدث أمامهم، أو يرونه ولا يهتمون. ثم نظر إلى البارمان الأسود الضخم فوجده يبتسم ويغمز له بطرف عينه.

قالت وداد:

- لدينا اليوم مشكلة. الوزير بو علي والزعيم ينتظرانك، وأسعد سعيد أيضًا ينتظرك. الوزير يريد أن يكمل لك حكايته التي لم تُعطه الفرصة لإكمالها حين صحبته إلى بيتك، وأسعد سعيد يريد أن يُطلعك على معالجته لقصة حياة صديقنا صاحب الشيء.

كان راشد يفكر في الرجل الحزين الذي يمسك بالشيء والذي يقولون أنه الزعيم. لم تكن على وجهه أي علامة للقسوة. وفطن إلى أن أسعد سعيد هو الشخص الثالث الذي يجلس مع الفتاة. كيف حقًّا كاد ينساه! وجاءهم صوت صاحب الشيء:

- أنا غير راضٍ عن معالجة الأستاذ أسعد سعيد لقصة حياتي يا سالم بك. أريدك أنت أن تكتبها.

وقـذف الزعيـم بالـشيء إلى الأرض ونظـر إلى صاحبـه وقـال في ضيـق:

- يـا أخـي اللـه يـرضى عليـك خـذ هـذا بعيـدًا عنّـا. إنـه يزاحمنا ويقلقنـا ونحـن نريـد أن نتحـدث مع الأسـتاذ.

بـدأ صاحـب الـشيء يبتسـم والـشيء يتراجـع منسـحبًا. ثـم نظـر الزعيـم إلى الوزيـر وسـأله:

- هل هذا هو سالم سليمان حقًّا؟

- طبعًا. ألا تذكر صوره في الصُّحف!

- أنا لا أذكر أيّ شيء.

هكذا أجاب الزعيم، ثم قال لراشد:

- لقـد حـضرت إلى بلدكـم لتسـاعدني حكومتكـم عـلى اسـترداد حكمـي لكنهـا خذلتـني. إنهـا تريـد أن تعرّضـني عـلى طبيـب نفسـانيّ. هـل أنـا مجنـون؟ هـل الزعمـاء يمكـن أن يُصابـوا بالجنـون؟ هـل أنـا مجنـون يـا وزيـري؟

بـان الرعـب عـلى وجـه الوزيـر، وكان صاحـب الأيـر قـد عـاد وأطلقـه، فمـشى عـلى الأرض حـتى وصـل إلى سـاق الزعيـم فتسـلّقها، وظهـر أمامـه، فعـاد الزعيـم يمسـك بـه ويسـكب البـيرة في فمـه مـن جديـد.

- مسكين.

قالت وداد. تساءل أسعد بصوت خفيض:

- أنا؟

هتف الوزير:

- يا أخي أنت مريض بالسرطان، ولعل الله يشفيك، لكن الزعيم ضاعت منه البلاد. ضاعت منه دولة كاملة..

لم يكن راشد يفهم لماذا يختلفون، ولم يفهم أيضًا كيف تعارفوا. لعلهم التقوا أكثر من مرة خلال أسبوع المطر الفائت وتوثَّقت علاقاتهم. وهتف أسعد سعيد رافعًا كوب البيرة:

- في صحة كل زعيم تضيع منه دولته!

ضحكوا جميعًا إلا الزعيم والوزير، الذي قال له راشد:

- تعرف أني حين قابلتك ظننتك مجنونًا؟

- سامحك الله يا أستاذ. أريد أن تستمع إليَّ باهتمام اليوم.

قال أسعد:

- أنا الذي سأقرأ معالجتي التلفزيونية أولًا. الأستاذ سيوافق على ذلك لأني أدفع منذ سنوات ثمن رغبتي في تحويل إحدى قصصه إلى سهرة تليفزيونية.

هتف الوزير في ضيق:

- يا أخي أسبوع كامل ونحن نستمع إلى قصتك عن هذا المجنون «وأشار لصاحب الشيء» أعطني الفرصة أكمل حكايتي للأستاذ.

- لا تتشاجروا. أنا اليوم قادر على الاستماع إلى كل

قال راشد ذلك وظهرت داخلةً من الباب الممثلة الجميلة ترتدي بالطو ثمينًا، وفي يدها حقيبة جلدية أنيقة. همست وداد:

- الممثلة إحسان. شيء لا يصدق.

اسمها إحسان الممثلة فكيف نسي اسمها من قبل أيضًا. هي أيضًا جاءت لتحكي له قصتها.

ألقت عليهم التحية وجلست.. بدا عليها الحزن ثم قالت لراشد:

- لقد جئت كما طلبت مني إلى برج العذراء.

وسكتت لحظةً، شاردةً، ثم أردفت:

- لم تترك لي عنوان البار.

خمَّنت أنه في منطقة وسط البلد. كنت كلما سألت أحدًا عنه ينظر إليَّ ويضحك. بار وبرج عذراء! كيف؟ لكن أحدهم انفجر باكيًا وتركني مسرعًا...

......

قسَّم راشد الوقت بينهم. قال أنه ما دام هناك قصتان محليتان وقصة واحدة لبلد أجنبيّ، فليبدأ بالاستماع إلى قصة محلية ثم قصة الزعيم ثم القصة المحلية الثانية. وافقوا مُبتهجين. وقبل أن تطلب الممثلة أن يبدأ بقصتها قال:

- فليقرأ علينا أسعد المعالجة التلفزيونية لقصة صاحب الشيء..

بسرعةٍ فتح أسعد مظروفًا كان قد وضعه على المنضدة القريبة الخالية، واستعد ليقرأ الورق الذي بداخله. لاحظ راشد أن الوزير ينظر في الورق كأنما يريد أن يعرف ما إذا كانت الحكاية طويلة أم قصيرة.. ابتسم. كم هو مرغوب اليوم من الجميع.. شكرًا لك سالم سليمان!

قال أسعد:

- رفعت شاب فقير، أراد مثل كل الفقراء أن يكون غنيًّا.

هتف صاحب الشيء من مكانه وقال:

- هذا أول الخطأ. يسميني باسمي.

هتف الوزير بو علي:

- انتظر يا أخي حتى النهاية. لو علقت على كل كلمة لن ننتهي اليوم. أنتم مشكلتكم يمكن أن تنتظر. نحن في حاجة إلى كل دقيقة..

سكت صاحب الشيء غير مقتنع. وعاد أسعد سعيد ليقرأ:

- رفعت شاب وسيم.. «ابتسموا وهم ينظرون لصاحب الشيء الذي بدا راضيًا» ومتخرج من الجامعة، أبوه موظف بسيط وأمه مدرِّسة ابتدائي، وله ثلاث أخوات بنات، عائلة لا تصنع مجدًا، هكذا فكَّر رفعت، ففكر أن يصنع لنفسه

تاريخًا. هكذا قرر.

«بدأ صاحب الشيء يمتعض ويلم شيئه» واستمر أسعد:

- فليكن أبوه وكيلًا أول لوزارة التعليم وأمه ناظرة لمدرسة بنات ثانوية، ولتكن أخواته كلهن في الجامعات الخاصة، أما جده فلقد كان من الثوار الذين حاولوا إنقاذ البلد من الفقر والجهل والمرض.

هتف صاحب الشيء:

- والله كل هذه المعلومات صحيحة وأنا لم أؤلفها.

أشارت له وداد أن يسكت، واستمر أسعد:

- مات جد رفعت وخلَّف للعائلة قصرًا كان قد تسلَّمه من حكومة الثورة بالخدم والتماثيل والحديقة والأثاث الكلاسيكي واللوحات التشكيلية الأصلية والسجاد الإيراني والكلب.

«كاد صاحب الشيء يتكلم» فأسرع أسعد بالحديث:

- لكن رفعت أحبَّ أن يبني نفسه بنفسه لذلك رفض هذه الحياة الرخية وقرر أن يعيش بكدِّه، فراح يبحث عن فتاة جميلة وغنية ليقول بعد ذلك أنه يريدها لجمالها فتُعطيه ما لها.

هتفت وداد:

- الله أكبر...

وصفَّقت، فأشار لها الوزير بغيظ أن تسكت.

- سمع رفعت من صديق له أن مفتاح الثروة ينتظره في أحد البنوك الأجنبية حيث فتاة جميلة أبوها سفير سابق ترك العمل الدبلوماسي ليعمل في البيزنس، فذهب رفعت إلى البنك الأجنبيّ ليفتح حسابًا بخمسة آلاف جنيه لا يعرف أحد من أين توفرت له، وفي نيّته أن يلتقي بالفتاة الجميلة التي اسمها «غصن».

هتف صاحب الشيء:

- لم يكن اسمها غصن، لكنها كانت مثل الغصن طرية ميَّاسة.

وقالت إحسان:

- هل ستحكي لنا القصة خطوة خطوة هكذا؟

قال أسعد سعيد:

- هذا فيلم.

كان الزعيم قد نام بينهم وهو جالس. انشغلوا بالنظر إليه، وأشار راشد إلى النادل ليضع أمامهم زجاجات جديدة من البيرة. وقالت وداد لأسعد «بسرعة قبل أن ينام بو علي أيضًا» فابتسموا، واستمر أسعد في الحديث:

- راح رفعت يتردد على البنك، يسحب ألف جنيه ثم يعود في اليوم التالي ويضعها في الحساب، وفي كل مرة يتلكأ داخل قسم الاستثمار الذي تعمل فيه غصن، يسألها عن أهم المشاريع الاستثمارية التي يقوم بها أو يمولها البنك. كان ينصب الفخاخ لها ولم يكن يدري أنها بدورها كانت

تستعد له.

بدا صاحب الشيء راضيًا وقال:

- الله يرضى عليك يا أسعد باشا. أنا لا أدري لماذا يرفضون أعمالك في التليفزيون. لعل الست إحسان التي شرفتنا اليوم تساعدك. بالمناسبة يا ست إحسان لماذا تريدين الهرب من البلاد؟

انتبهت إحسان إلى كلامه، بدت عليها الدهشة. سألته مَن قال لك ذلك؟ قالت وداد: كل البلد تعرف أن الإرهابيين يطاردونك. أشار لهم الوزير أن يسكتوا. قال: حكايتكم لن تنتهي. أرجوكم اتركوا الأستاذ أسعد ينتهي. ثم وجَّه الحديث لراشد، ما رأيك يا أستاذ سالم أن نذهب من هنا لأكمل لك القصة وترى ماذا يمكن أن تفعل لنا؟ لكن راشد، الذي كان سعيدًا جدًّا بهذا الانهيار الذي عليه الجميع حوله، رفض الاقتراح بأن هز رأسه عدة هزات ثم أشار لأسعد أن يستمر فاستمر..

- دعته غصن يومًا إلى فنجان من القهوة في مكتبها بدلًا من الأسئلة السريعة التي يسألها ويمضي، وتأثرت غصن جدًّا بحكاياته عن كفاحه ورفضه أن يعيش على ما ورثته العائلة من جده وتطور، الحديث بينهما إلى أحوال البلاد التي يموت رفعت حبًّا فيها وحزنًا عليها. أليس كذلك يا رفعت؟

- كذلك والله يا أسعد، ولا زلت حزينًا على البلاد، خصوصًا مسألة الأيور التي تنتشر بالليل في الشوارع هذه.

ضحكوا بقوة، باستثناء راشد الذي نظر إلى إحسان التي نظرت إليه. وشخر الزعيم شخرة بدا أنه سينهض بعدها من إغفاءته، إلا أنه عاد وأغفى. واستمر أسعد:

- كانت غصن رقيقة الروح جدًّا يحمرُّ أنفها بسرعة وتكاد تبكي من التأثر، وقالت له «حرام عليك يا رفعت» فأدرك رفعت أن السدود انهارت بينهما تمامًا فدعاها إلى غداء في مطعم «نايت آند داي»... زار رفعت القصر الذي تعيش فيه غصن وقابل أباها رجل الأعمال فشرح له أبوها كيف اشترى القصر من أحد رجال الثورة، ولما لاحظ رفعت أن الأركان خالية من التماثيل ورأى ذقن الرجل طويلة أدرك أنه رجل محافظ ورجعي، فقال له أن أباه يحتفظ بالتماثيل في قصرهم، فبان الغضب على وجه أبي غصن، وأدرك رفعت أنه على هذا النحو لن يطلب زيارة عائلته أبدًا فيظل سره مكنونًا. وهنا قال صاحب الشيء ساخرًا: غيّر «مكنونًا» هذه، الله يخليك، لأن نطقها سخيف جدًّا، فلم يعلّق أحد، واستمر أسعد:

- تزوج رفعت وغصن في حفل كبير في أكبر فنادق العاصمة، وخرجا معًا من الفرح إلى الطائرة المتجهة إلى هاواي لقضاء شهر العسل. في الطائرة التقت غصن إحدى المضيفات التي كانت صديقة قديمة لها، فقدمت إليها رفعت باعتباره رجل أعمال شاب، والمضيفة بدورها أخبرت طاقم الطائرة بوجود عروس على الرحلة فجاء الطاقم بتورتة كبيرة واحتفلوا بالعروسين.

- اللـه. دي حاجـة أوريجنـال خالـص عمرهـا مـا ظهـرت في السـينما. إزاي رفـض التليفزيـون السـهرة دي؟

تساءلت الممثلة إحسان، فقالت وداد:

- المشـكلة فيمـا هـو قـادم، وأيضًـا أسـعد نفسـه مرفـوض ككاتـب منـذ كتـب معالجـة دراميـة لقصتـك العجيبـة يـا أستاذ.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

قال الوزير بو علي في يأس، واستمر أسعد:

- مـر الوقـت طويـلًا ونـام الـركاب فنهـض رفعـت ليذهـب إلى دورة الميـاه. خلـف دورة الميـاه كانـت المضيفـة تقـف مـع زميلـة لهـا وسـمع رفعـت هـذا الحـوار..

المضيفة: لا يوجد شخص في مصر إلا ونامت معه.

الزميلة: هكذا تعرفينها جيدًا؟

المضيفـة: أعرفهـا! إنهـا صاحبـة مـزاج. تحـب تنـام في كل مـكان. في العربيـة في الطيـارة في التاكـسي وتحـت المـاء وفي الخرابـات وتقـول لـك كلهـا تجـارب مفيـدة للـزواج!

الزميلة: هذا شيء يفوق العقل. وأهلها كيف يتركونها؟

المضيفـة: لا وقـت لـدى أبيهـا، شـغال في البيزنـس وكل شـهر لـه جـوازة وطـلاق. لكـن غصـن ذكيـة جـدًّا اصطـادت لهـا شـابًّا غلبانًـا يسـتر فضائحهـا..

هل هذا الحوار ناقص يا رفعت؟ لأ يا سيد أسعد..

وبدأ الوزير يضع خده على كفه في غيظ، واستمر أسعد:

في جزر هاواي أخرجت غصن منديلًا أبيض وجرحت إصبعها بموسى ولوثت المنديل بالدم وطلبت من رفعت أن يفعل مثلها، وقالت له الآن تعاهدنا على عدم الفراق إلى الأبد. لقد امتزجت دماؤنا يا رفعت. وسألها: لماذا لوثت المنديل بالدم؟ فقالت لأن الأسرة تنتظر دليل بكارتها وطهارتها... بعد العودة...

هنا وقف الوزير بو علي وقال:

- يكفي هذا الله يخليك. سنعود إليك. الزعيم نام تمامًا، وأنا أريد أن أنهض وأعود به إلى الشقة التي خصصتها لنا حكومتكم. أعطوني فرصة أن أكمل حكايتي للأستاذ ثم استمروا أنتم في هذا السيناريو..

فكر راشد أن هذا حل معقول. وقالت الممثلة إحسان:

- يبدو لي أن هذا أفضل، حتى ينصرف الرجلان، ثم نستمر نحن. لكن من حضرتك؟ أنا لا أعرفك، ومن هو الزعيم؟

قالت وداد:

- الله يخليكي لا تسأليه حتى لا يبدأ من البداية. باختصار هذا وزير والنائم زعيم سابق تم طردهما من بلدهما ويريدان الأستاذ سالم أن يساعدهما في العودة إلى الحكم.

أغمضت إحسان عينيها في دهشة، أحسَّت أنها في موقف شديد التعقيد وغير مفهوم، وطوى أسعد الورق وقال للوزير:

- طيب ابدأ حضرتك بشرط أن لا تطيل..

- اسمع يا أستاذ.

قال الوزير، فانتبهوا كلهم..

- نوقظ الزعيم؟

تساءلت وداد.

- لا. الأفضل أن يظل نائمًا..

- تذكَّر أني طلبت منك ألّا تتحدث في السياسة.

قال راشد للوزير محذِّرًا، فقال الوزير:

- اسمعني يا سيد سالم. المسألة الآن لا تحتمل التأخير -وخاطب الآخرين- أرجوكم لا تقاطعوني...

سكت لحظاتٍ، انتظروا فيها أن يتكلم... ثم تكلم:

- لقد أصدر الزعيم تعليماته للشعب أن يكون غنج النساء على أربعة مقامات موسيقية، مقام الرّصد لشمال البلاد، ومقام حجاز كار للجنوب، وللشرق النهاوند، وللغرب البيَّاتي. لا تندهشوا. إذا شئتم القصة من البداية أعيدها لكنكم فنانون وكتَّاب ويمكن لكم أن تعرفوا ما سبق تخمينًا أو يعيده عليكم الأستاذ سالم فيما بعد.

- استمر يا سيادة الوزير.

قال سالم، فاستمر الوزير بين دهشة الجميع:

- وهكذا صار على النساء أن يتعلَّمن الموسيقى، لأن التي

تخطئ صار مصيرها مثل مصير سريع القذف الذي سبق وحدثتك عنه. هل تذكر المصير؟ لا بُد. حلوة ابتسامتك هذه يا أستاذ. المهم قصر الزعيم كان بالضبط في منتصف البلاد، وحيث يمتلك عددًا ضخمًا من العلماء الشياطين طوروا نظام الاتصالات بحيث صار يرى ويسمع معًا، لكنَّ همَّ الرؤية والاستماع كان كبيرًا على نفسه، فوزع النكاح بحيث يكون أسبوعًا لكل ناحية من البلاد، وهكذا كان الشهر يدور حتى يقابل الرجل زوجته مرة أخرى. لم يغضب الناس، كانوا كما قلت لك قد كرهوا النكاح، ارتاحوا...

ضحك صاحب الشيء. هتف: أول مرة أرى شعبًا يكره النكاح.

خجلت الممثلة، اندهشت وداد. بدأ بقية الجالسين في البار ينتبهون، فسحبوا مقاعدهم وراحوا يحيطون بالجميع ويسمعون، ولم يزل الزعيم نائمًا. استمر الوزير:

- قلَّت أعداد القتلى حتى جاء يوم أغبر ناداني فيه الزعيم غاضبًا. هل هذا شعبي يا وزير؟ سألته ماذا تقصد يا مولاي؟ صرخ: هل هذه هي الملابس الداخلية لشعبي؟ خفت وارتعدت. قلت: هذا ما تحمله سفنك فأنت الذي تحتكر تجارة الملابس الداخلية. صرخ: أنا لا يمكن أن أختار لشعبي هذه السوتيانات والكيلوتات والكومبينات. شعبي ليس بخنازير. اخلع ثيابك أرني سروالك. اخلع بسرعة.

بدت الدهشة على وجوه الجميع، والذين يحيطون بهم راحوا ينظرون لبعضهم غير مُصدِّقين ما يسمعون.

- لا تبتسموا. إنها مأساة. لا تسخروا مني. خلعت ثيابي وعرف الزعيم أن جميع ملابس الوزراء الداخلية من أفخر أنواع القطن فقرر أن يرتدي جميع الوزراء وعائلاتهم سراويل من وبر الجمال بالصيف والشتاء، واستورد سفنًا لا نهاية لها من الملابس الداخلية الناعمة للشعب عندًا في الوزراء، ثم قرر تغيير المقامات الموسيقية في كل ناحية من البلاد وهكذا صار على النساء أن يعُدنَ لتعلّم الموسيقى من جديد.

وقف صاحب الشيء واتجه إلى باب الخروج صامتًا. بعد أن ابتعد التفت إليهم وقال:

- برج العذراء صار برج المجانين.

ضحك الجميع وبدا التوتر على وجه الوزير، فقال له راشد:

- أكمل بسرعة...

فأكمل:

- قلت له يا فخامة الزعيم رفقًا بالقوارير. قال لي يا وزيري الأحمق ما الحضارة الإنسانية إلا ملابس وجنس، ولأننا في عصر الميديا سوف أصادر كتبًا مثل رجوع الشيخ إلى صِباه والرّوض العاطر ونزهة الألباب فيما لم يذكر في كتاب والأيك في فن النيك وغيرها. وظهرت لي ثقافته الجنسية رائعة وتعجَّبت كيف يُصادر كتبًا تربَّينا كلنا عليها، لكنه أوضح لي أن فيلمًا واحدًا من أفلام البورنو أهم وأسرع تأثيرًا، وكان

على حق. دائمًا هو على حق. وزاد على ذلك أنه قرر أنه من حق الشعب أن يرى بعضه بعضًا، وليبحث العلماء عن وسيلة تجعل كل شخص يرى ما يفعله الشخص الآخر في امرأته أو عشيقته في أيّ مكان وفي أيّ وقت. ولقد وجد العلماء وسيلة لذلك، ولَيتَهم ما وجدوا!

- هذه ألف ليلة جديدة.

قالت الممثلة إحسان.

- إنها حكاية عجيبة حقًّا!

قالت وداد.

- أكمِل. أكمِل يا حاج.

قال أحد الروّاد المتحلّقين حولهم، فضجّوا بالضحك، وهنا انتفض الزعيم، واستيقظ ونظر حوله يتأكد من مكانه. وقال أسعد:

- طبعًا الشعب انبسط!

- أبدًا. ازداد الغمّ، حين قرر الزعيم أن يكون النكاح على طريقة واحدة، فينام الرجل على ظهره وتقوم المرأة بعمل كل شيء. لقد ظل الرجال آلاف السنين يركبون النساء وقد آن الأوان أن يحدث العكس آلاف السنين القادمة.

ضحك المتحلّقون حولهم بقوة. والبارمان بدوره ترك مكانه وسحب كرسيًّا وجلس معهم.

- هل كنت مخطئًا يا سيادة الكاتب؟

تساءل الزعيم فجأةً!

- لا.

أجاب راشد..

- الزعماء دائمًا على حق.

قال أسعد. وانفتح باب البار ودخل المغنّي الأعمى يحمل العود. قام البارمان وسحبه إلى مكانه المعتاد وعاد ليجلس مع الجالسين.

قالت وداد:

- ليتك تغني لنا شيئًا جديدًا اليوم من أجل الأخوة اللاجئين الذين معنا.

تنحنح المغنّي وأخرج من جيب سترته ريشةً وراح يعزف. فقال أسعد يائسًا:

- تاني بيت العز يا بيتنا؟ يا أخي نحن جميعًا مطرودون من بيوتنا.

لكن المغنّي راح يردد الأغنية، وشيئًا فشيئًا سكت الجميع ينصتون، وعلى عكس ما هو متوقَّع اندمج الجميع مع الأغنية، وبدأت عينا إحسان تترقرق بهما الدموع.

وهمس لها راشد:

- هل حقًّا ستهربين من البلاد؟

همست له:

- ليتك تترك هذا المكان وتسمعني. لقد جئت إليك كما طلبت فوجدت حولك جماعة من الحمقى. إنهم حتى لم يفرحوا بحضوري كأني لم أكن ممثلة مشهورة.

وقال أسعد سعيد للوزير:

- هل يمكن أن تنتهي القصة هنا لأبدأ أنا في إكمال حكايتي؟

- انتظر حتى أحكي لك كيف كان الزعيم المبجَّل يأكل خصومه. أجل كان يحتفظ في ثلاجاته بمخاصي وأيور الرجال ونهود وأفخاذ النساء. تمامًا كالأفريقي عيدي أمين..

- كان يحتفظ بالقطع الممتازة.

هتف البارمان فضحك الجميع. قال الزعيم:

- لا تسخروا منّي فأنا أقل من يفعل ذلك.

ثم نهض ليجلس بعيدًا عنهم على منضدة وحده ويبكي. كان المغنّي الأعمى قد انتهى من الأغنية وبدأ أغنية

«يا أمه القمر ع الباب» وهي أغنية يحبها الجميع، فراحت وداد وإحسان تتراقصان بأكتافهما وهما جالستين. واستمر الوزير يتكلم...

- صار الزعيم عدوًّا للشعب كله. أصبح الشعب عريانًا أمامه وأمام بعضه البعض، فاتفقوا جميعًا أن يمارسوا الجنس دفعة واحدة وفي ساعة صفر واحدة، وأن ترتفع أصواتهم وأن لا يلتزموا بالمقامات، وحين أقبلت الساعة

وجـد الزعيـم نفسـه في بحـر متلاطـم مـن الجنـس والجنـون. كان العلمـاء الخبثـاء قـد أفسـدوا الأجهـزة بحيـث لا ينقطـع الصـوت ولا ينخفـض، فـترك الزعيـم غرفـة نومـه إلى غرفـة أخـرى بـلا فائـدة، وهكـذا مـن غرفـة إلى غرفـة راحـت الأصـوات تطـارده حـتى خـرج إلى ردهـة القـصر الكبـيرة فـازدادت الأصـوات وتضخَّمـت، وراح ينـادي عـلى العلمـاء والـوزراء ولا أحـد يُجيبـه. لقـد نـسي أنهـم مـن الشـعب أيضًـا، فجـرى إلى بـاب القـصر فوجـده موصـدًا، فبحـث عـن قطـن يسـد به أذنيـه فوجـده يزيد مـن حِـدَّة الأصـوات وهـي تخترقـه، أغلـق عينيـه لكـن الصـور كانـت قـد انطبعـت فيهـا -كان الزعيـم يـزداد بـكاءً ونشـيجًا وهم ينظـرون إليـه- أولاد الحـرام امتزجـت أصواتهـم بموسـيقى جـاز وآلات نفـخ وترومبيـت وسـيمفونيات فاجنريـة وطلقـات رصـاص ومَدافـع. انظـر إنـه يبـكي بشـدة. الأصـوات تعـود إليـه المسـكين!

كان الزعيم يسدّ أذنيه بيديه.

- كاد يجـنّ، ومـن جنونـه راح يعـضّ ذراعيـه ويـأكل أصابعـه -ولاحظـوا أن أصابعـه مقروضـة الأطـراف فعـلًا- ثـم انفتـح لـه البـاب، فخـرج يجـري حـتى وصـل إلى أكـبر غوطـة عـلى تخـوم البـلاد، لأن الشـوارع كلهـا كان بهـا مكـبرات صـوت، ونزلـت فيهـا حشـود الشـعب تغـنّي وتعـزف وتـدق الدُّفـوف حولـه، وراح الأطفـال يقذفونـه بالحجـارة!

- كفّ يا وزير.

صرخ الزعيـم وهـو يـضرب المنضـدة بكّفيـه فـكاد يكسرهـا. وعـاد يبـكي بهـدوء. حـطَّ عـلى الجميـع صمـتٌ.

- كنت أعرف النهاية وكنت أنتظره. بحثتُ له عن مأوى عند بعض البدو، تركته فيه وجئت إلى بلادكم أبحث له عن طريقة محترمة لإحضاره، ولقد استجابت حكومتكم لطلبي وجاءت به إلى هنا، بشرط أن لا يفكر في العودة إلى الحكم.

هتفت وداد:

- هذا إذًا سر بكائه..

كان المغنّي الأعمى قد سكت، والجالسون في دهشتهم، وبدا على وجه أسعد اصفرار.

- مالك؟

سألته وداد. ظهر على وجهه ألمٌ شديد.. هتفت في الوزير:

- ماذا كان يضيرك لو أكمل أسعد قصته وتركناك مع الأستاذ سالم. أسعد مريض بالسرطان تأتيه نوبات ألم شديدة. قد يموت الآن بيننا ولا يُكمل القصة.

لكن أسعد استعاد نفسه. أشار إليها أن تسكت.

- هل تحب أن أكمل لك القصة يا أستاذ؟

ظهر الضيق على وجه إحسان الممثلة، لكن راشد مدَّ يده وربت على فخذها أن تتمهَّل. أمسكت وداد ورق أسعد وقالت:

- سأقرأ أنا.

وراح الروَّاد المتحلِّقون حولهم يفركون أياديهم في سعادة

ويبتسمون، ووقف البارمان يقول:

- سأوزع عليكم دورًا آخر من البيرة على حسابي. حكاياتكم تستحق ذلك..

كانوا يعرفون أنه كاذب. وأنه سيُضيف حسابها إلى حساباتهم. لم يكترثوا. راحت وداد تقرأ:

- بعد العودة فكَّر رفعت وغصن في أول مشروع لهما. بناء أوتيل صغير على البحر. حدَّدت غصن لرفعت موعدًا مع مدير الاستثمار في بنك آخر غير الذي تعمل فيه.

كان راشد يرى أربعة أيور صغيرة تدخل من الباب وتتجه إلى إحدى المناضد وتجلس حولها، ولدهشته رأى النادل يضع أمامها أربعة أكواب صغيرة من البيرة. هل صارت الأيور شيئًا حقيقيًّا يتقبّله الناس في المدينة؟ نظر إلى الممثلة إحسان. إنها تبدو حزينة مكسورة. مَن تلك التي كانت معه في الغرفة؟ سأل نفسه من جديد.. وصرخت وداد:

- اسمع أيها الوزير بو علي. لقد استمعنا إلى خرافاتك. زعيمك هذا ليس إلا أير صغير تافه..

لاحظ راشد أن الأيور الأربعة التفتت تنظر إليهم، ثم عادت إلى وضعها. هز رأسه ينفض عنه هذه الخيالات. لا يمكن أن يكون ما يراه حقيقيًّا. قال للوزير:

- ماذا تريد منّي بالضبط؟

- أن تكتب مقالًا لحكومتك تتشفَّع فيه للزعيم أن تساعده على العودة إلى الحكم.

- طيب. هل يمكن أن تنتظر قليلًا؟ سأفكر معكما في الأمر وكيف ننجزه. فقط قل للزعيم أن يكف قليلًا عن البكاء.

قال أسعد بألمٍ:

- فرصة الآن بعد أن خرج رفعت فالجزء الباقي مُحرج جدًّا.

وعاد المغنّي يعزف «بيت العز يا بيتنا» فهتف أسعد:

- الله يخرب بيت أمك. يا أخي اسكت حتى ننتهي.

وهمس أحد الروَّاد لزميله «ما رأيك أن نقبض على الجميع الآن؟» لكن الآخر همس إليه «دعنا نسمع القصة للنهاية». وكان الجميع قد سكتوا فعادت وداد تقرأ:

- بسرعة حصل رفعت وغصن على عقد شراء مزوَّر لقطعة أرض على الساحل، وبسهولة حصلا على تقرير الخبير المثمّن للمشروع الذي أطلقا عليه اسم «حنا للضيف» والذي سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، عرضا مائة ألف جنيه رشوة لمدير الاستثمار الذي اعتذر وطلب فقط أن يقضي معهما سهرة لطيفة، وفي نفس اليوم بالليل زارت رفعت أخته زينب. عرف رفعت أن غصن تزور أهله سرًّا، وأنها نقلت أسرته كلها من الحي الفقير إلى أحد الأحياء الراقية، وطلبت من رفعت أن تبقى زينب معهما.

في الليلة التالية سهر الجميع في ملهًى ليليٍّ مع مدير الاستثمار، بعد السهرة صحب مدير الاستثمار زينب معه في سيارته. قال رفعت لغصن أن زينب جادَّة ويمكن أن تقتل مدير الاستثمار إذا حاول الاعتداء عليها فضحكت غصن

وقالت له «هل تعرف يا حبيبي أول شيء طلبته زينب منّي حين قابلتها؟ لقد طلبت أن أخلّصها من حمل سِفاح!

حصل رفعت وغصن على المليون الأول، وزارت زينب أسرتها في سيارة فيات جديدة، وعادت ومعها أختها فايقة الأصغر منها التي صحبها مدير الاستثمار إلى الملهى الليليّ، وحصل رفعت وغصن على المليون الثاني.

- يا سلام! «حكاية زيّ اللي بصحيح»

قال البارمان غير مُصدِّق، واستمرت وداد:

- زارت فايقة أسرتها وعادت بأختها الأصغر نازلي في سيارتها البيجو الجديدة، وحصل رفعت على المليون الأخير -وأسرعت وداد- لكن غصن الطمّاعة لم تكتف بذلك، فاجأت رفعت برغبتها في فتح محل لبيع العاديات، حيث تعرفت على شخص مهم سيمدّها بقطع آثار أصلية، وحتى تبيع الأصلية لا بُد أن تعرض قطعًا مُقلَّدة في محل. اسمعوا اسمعوا. هتفت وداد وواصلت القراءة، بينما كان الوزير قد تمكن من إسكات الزعيم عن البكاء، وراح الاثنان يتابعان الحديث من المنضدة الأخرى في غيظ.

حضر الافتتاح السيد المحافظ وحضرت نازلي مع رجل الآثار في سيارته ال بي. إم. دبليو. ومعها أمها التي قررت أن ترعى شئون بناتها بعد أن دخل الأب في حالة من الصمت اللا نهائي وأطلق لحيته وأهمل هندامه، ثم فقأ عينيه وترك البيت إلى الصحراء واختفى على طريقة «أوديب» في المسرحية الشهيرة.

تبادل الروّاد المحيطون بهم النظرات. كان واضحًا أنهم يتساءلون عمَّن هو «أوديب» الذي ذكرت اسمه. قال أحدهم «قصدك أديب يا مدام» أشارت إليه بيدها أن يسكت، واستمرت تقرأ:

- بعد الافتتاح ذهب الجميع إلى محل أسماك كبير، لكن المحافظ وهو يتصدر المائدة بكى فجأةً، وراح يتحدث عن ابنه المتخلّف عقليًّا الذي يقف يمارس العادة السرية وسط صالة البيت أمام الضيوف، وهنا اقترحت أم رفعت أن يسلم المحافظ ابنه لنازلي تعلمه الجنس، فهي صغيرة ومناسبة للولد. لكن التيليفون المحمول لغصن دق فردت على المكالمة وتجهَّمت لحظةً، ثم قالت أن أباها مات. حطَّ الوجوم على وجوه الجميع، لكن غصن ضحكت وقالت أن أباها مات وهو فوق امرأة أمريكية، ثم قالت أنه مات في عز الشغل. اندهش الجميع من هذه اللغة السوقية لغصن، لكنها استمرت تتحدث وشرحت كيف أن أباها مات في لوس أنجلوس حيث حاول أن يقضي ليلة مع جوليا روبرتس لكنها طلبت عشرة ملايين جنيه، فاستعاض عنها بكومبارس مات فوقها. هكذا حدَّثها مدير أعماله هناك على الهاتف.

- يا جماعة هذا كثير جدًّا!

هتف الوزير. لكن بدا أن إحسان صارت مستعدَّة لسماع القصة لآخرها، فهي على الأقل قريبة من قصتها، وقالت لوداد:

- استمرّي يا مدام. إنها حكاية ممتعة.

- أنا مدموازيل يا هانم!

قالت وداد ذلك واستمرت تقرأ:

- بعد أيام من الافتتاح والعشاء قابلت نازلي في عربتها المرسيدس أخاها رفعت وزوجته غصن وحكت لهما كيف حاولت أن تساعد الولد المتخلف أن يضع ذكره فيها، لكنه لم يستطع، وكانت كلما جذبته نحوها يضحك ويتراجع للخلف حتى قذف على يدها.

- الآن وصلت الأمور إلى ما لا يُطاق.

همس الرجل الذي طلب من زميله أن يقبضا على الجميع من قبل لكن زميله قال له أن ينتظر فهناك ما هو أكثر أنه يريد توريطهما للنهاية فكل شيء يتم تسجيله.

- لم تيأس نازلي ولا المحافظ الذي جعل الولد يركب فوقها ثم راح يضغط عليه بلا فائدة، فجاءت الأم غاضبة وقالت «ليه تبهدلوا الولد كده!» وطلبت منه أن ينام على ظهره وتجلس نازلي عليه وتقوم بالعملية كلها.

«تمامًا كما أمر الزعيم يا وزير في بلادكم». قالت ذلك وداد واستمرت تقرأ:

- نجحت العملية وكان الولد يتنفَّس بسرعة، وفي خوف، وتتَّسع عيناه من الدهشة والفرح، وفي اللحظة التي قذف فيها صرخ وضحك واهتز فأسقطها من فوق السرير وراح يجري عاريًا، ولولا أن باب الشقة كان مغلقًا لخرج إلى

الشارع وكانت فضيحة. بعد ذلك احتضنته الأم وراحت تهدهده وتربت على ظهره وعهدت إلى الخادمة أن تصحبه إلى الحمام وتحميه، وما هي إلا لحظات حتى سمعوا صوت الخادمة تصرخ. وغرق الجميع في الضحك.

الجميع.. مَن تحكي عنهم القصة ومَن يجلسون في برج العذراء. وقالت الممثلة إحسان:

- وماذا حدث لغصن وزوجها؟

قال راشد رشاد:

- نجحا في الحصول على قرض بعشرين مليون جنيه وقررا الهرب من البلاد. في المطار فوجئ رفعت بأنه ممنوع من السفر. بكت غصن وهي تودِّعه، وراح يذكِّرها بعهدهما على عدم الافتراق، فقالت له أنها من أوروبا ستُرسل له كل النقود التي حوَّلاها باسمها. لم ترسل شيئًا ولم تعُد، وترك رفعت البلاد بعد حُكم بخمس سنوات سجن قضاها كلها.

هتفت وداد بين دهشة الجميع، وسألت راشد:

- كيف عرفت القصة؟

قال:

- هل نسيتِ أنني مؤلف؟

وفي نفسه كان قد قرر أن يقتل أسعد سعيد أو لا يعود إلى هذا المكان أبدًا. القصة قصته هو. قصة حياته هو قبل أن يتزوج للمرة الثانية الزوجة التي ماتت وابنته في

الحادثـة، فكيـف عرفهـا هـذا المريـض! الآن يتذكـر راشـد أنـه قـصَّ القِصـة كلهـا عـلى سـالم سـليمان في البلـد الصحـراويّ، وأن سـالم لـم يعلِّـق بكلمـة، ثـم قـال لسـالم أنهـا قصـة مـن اختراعـه يتمـنَّى أن يحوِّلهـا لفيلـم تليفزيـوني بعـد عودتـه، لكـن سـالم قـال لـه أنـه يعـرف أنهـا قصتـه الحقيقيـة، وأنـه لا يجـب أن يخشـاه.

وبـدأ عـرقٌ يتفصَّـد عـلى وجهـه، ولاحـظ الجميـع الإعيـاء الـذي أصابـه بينهـم، لكـن بـاب البـار انفتـح ودخـل منـه ضابـط برتبـة كبـيرة خلفـه ثلاثـة ضبـاط برتبـة أقـل. مـا إن رأى الضابـط الكبـير الزعيـم حـتى هتـف.

- أنت هنا يا سيدي ونحن نبحث عنك في كل مكان!

رأى راشــد الأيــور الأربعــة قــد هربــت مــن البــار. وســألهم الضابــط الكبــير:

- هل حكى لكم شيئًا؟

قالت وداد:

- لقد حكى لنا الوزير القصة كاملة.

- إذًا هـو يسـتحق مـا قررتـه الدولـة. أن تعرضـه عـلى طبيـب نفسـيّ. هيـا معـي أيهـا الزعيـم. هـذا ليـس المـكان اللائـق بـك.

كانـت إحسـان تطأطـئ رأسـها في محاولـة أن لا يظهـر وجههـا للضابـط الكبـير، الـذي فاجأهـا وقـال:

- وأنــتِ يــا ســت إحســان لا تخــافي مــن شيء. بلدنــا أمــان

ونحـن نراقـب كل شيء. لا تحـاولي الهـروب عـن طريـق الأجانـب. الإرهابيـون لـن يصلـوا إليـك.

أمسـك أحـد الضبـاط الصغـار بيـد الزعيـم وأمسـك ضابـط آخـر بيـد الوزيـر، وتأهَّـب الجميـع للانـصراف، لكـن الضابـط الكبـير نظـر إلى المغـنّي وقـال:

- كيف حالك يا مولانا الشيخ؟

- بخير يا باشا الحمد لله.

أجابه بذلك وكاد يقف، فقال الضابط:

- خليك مكانك. لا داعي للوقوف. لكن انتبه.

- أنا فقط أغنّي يا باشا.

- نعـم، لكنـك دائمًـا تغـنّي بيـت العـز يـا بيتنـا. إنـك لا تغـير الأغنيـة أبـدًا وهـذا لـه معـنى. إنـك تسـخر مـن الـدول. دولتنـا فقـيرة لكـن نحبـه..

- والله يا باشا كثيرًا ما أغنّي «يا أمه القمر ع الباب».

- طيـب وهـي دي شـوية؟ دي دعـوة للاسـتعمار يـا مولانـا. والاسـتعمار ليـس القمـر!

ارتعـد المغـنّي. اندهـش الجميـع، وتقـدَّم الضابـط الكبـير وخلفـه الضبـاط الصغـار ومعهـم الزعيـم والوزيـر وعـاد الـرواد كلٌّ إلى مكانـه. بعضهـم انـصرف. ورأى سـالم ثلاثـة أيـور تعـود إلى البـار وتجلـس إلى المنضـدة نفسـها الـتي كانـت تجلـس إليهـا منـذ قليـل. كان قـد سـمع أثنـاء حديـث الضابـط صـوت فرامـل

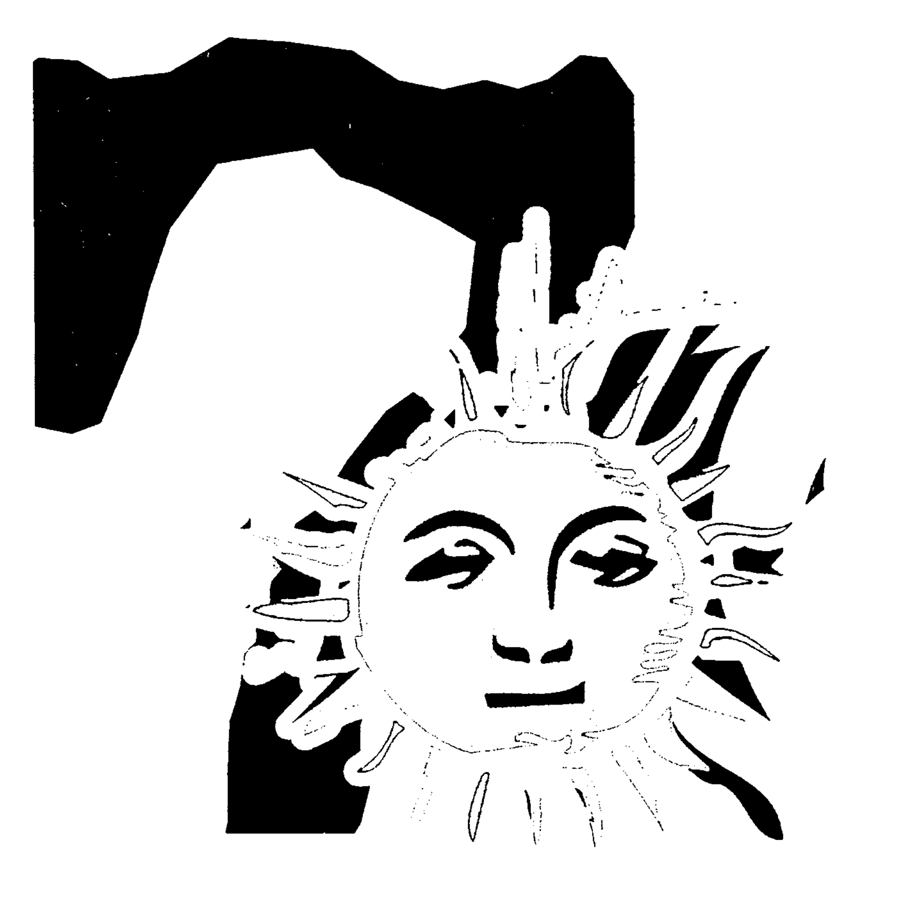
قويـة في الخـارج. لا بُـد أن سـيارةً دهسـت الأيـر الرابـع. وقالـت الممثلـة إحسـان بصـوت خافـت:

- أظنك لن تستطيع أن تستمع لقصتي الآن!

لم يرد. أخرجت من حقيبتها مظروفًا كبيرًا قدَّمته إليه.

- عــلى أيّ حــال لقــد كتبتهــا لــك. اقرأهــا وإذا اســتطعت مســاعدتي هاتفــني. في المظــروف أيضًــا كارت بــكل تليفونــاتي. أرجــوك لا تُعطِهــا لأحــد.

كان هــو ينظــر بجِــدَّة إلى أســعد ســعيد الــذي بــدوره كان لا يفهـم لمـاذا ينظـر إليـه كذلـك. كان راشـد رشـاد يفكِّـر مـتى تـزوج مـن زوجتـه الـتي ماتـت، هـل حـدث ذلـك بعـد زواجـه مـن غصــن حقًّــا! لا. لــم تكــن غصــن أبــدًا زوجتــه. وزوجتــه الـتي فقدهـا كانـت الأولى والأخـيرة. لكـن لا بُـد مـن قتـل أسـعد سـعيد..



«ماذا يحدث لو فشل في قتل أسعد سعيد؟»

كان هـذا هـو السـؤال الـذي قفـز إلى ذهنـه وهـو يسـتيقظ مـن نومـه. سـؤال رآه مُعلَّقًا أمامَـه في فضـاء الغرفـة.

مـاذا يحـدث لـو نجـح في قتلـه؟ هـل سـيحمل صورتـه بعـد أن حمـل صـوت سـالم؟ وإذا حمـل صورتـه سـيناديه النـاس بأسـعد سـعيد، وسيكتشـفون أنـه لـم يكـن يحمـل مـن سـالم إلا صوتـه وأنهـم كانـوا علـى خطـأ حـين نـادوه سـالم ومـن ثَـم سيكتشـفون أن سـالم قـد قُتـل وسـيتهمونه بقتلـه بالتأكيـد..

هكـذا مـع أول ضـوء يدخـل الحجـرة أصابتـه الحـيرة، وأصابه العجـز عـن الفهـم... لـم يفكـر كيـف كان صاحـب الـشيء يتجـاوب مـع أسـعد باعتبـار أن مـا كتبـه هـو قصتـه هـو. إنـه شـخص فاقـد الذاكـرة فيمـا يبـدو. شـخص حُطـام!

خـرج مـن الغرفـة إلى الصالـة فوجـد فـرح يدخـل مـع الضـوء مـن شـيش النافـذة ويقـف بعيـدًا في ركـن مـن الصالـة وفي كلِّ

مـن يديـه أيـر صغـير يضغـط عليه لحظـة فيتمـدد، ثـم يعـود يُرخـي قبضتـه فينكمـش الأيـر ويـردد بـين الأيريـن بـصره ويقفـز ضاحـكًا.. الأفضـل أن يقتـل فـرح. لـو قتلـه انتهـت كل كوابيسـه. لكـن فـرح خـرج مـرةً أخـرى مـن البـاب المغلـق حامـلًا معـه الأيريـن.

في الحمـام، وهـو تحـت الـدش، فكَّـر أنـه مـن الأفضـل لـه عـدم الذهـاب إلى بـرج العـذراء. عـلى الأقـل لعـدة أيـام، ولـو طالـت يكـون أحسـن، أسـعد سـعيد مريـض بالسرطـان ويبـدو مـن الألـم الـذي ينتابـه أنـه سـيهلك وحـده..

ثلاثـة أيـام بعـد ذلـك ظـلَّ يحلـم حُلمًـا واحـدًا. يدخـل إلى مـسرح كبـير فيـه كل نجـوم الكوميديـا فيراهـم مُعلَّقـين عـلى سـتارة المـسرح الكبـيرة، صاعديـن هابطـين كالحـشرات، والجمهـور صاخـبٌ بالضحـك، ثـم يمـشي في طرقـة طويلـة مفروشـة كلهـا بضفـادع تضحـك. حُلـم لـم يفهـم مغـزاه أبـدًا. وفكَّـر في انقطـاع البنـات عـن الحضـور إلى مكتبـه، وأنـه لـم يسـتقر عـلى سـكرتيرة منهـنَّ، وأنهـنَّ أخـذنَ منـه نقـودًا كثـيرةً واختفـينَ، ووداد بدورهـا لـم تعُـد تـأتي. وتذكَّـر أنـه لـم يقـرأ بعـدُ قِصـة الممثلـة إحسـان، وكانـت صحـف الأيـام السـابقة مُلقـاة بإهمـال عـلى المكتـب، فجلـس يقـرأ بعـض صفحاتهـا.

اغتيـال الفنانـة إحسـان عـلى يـد مجهـول.. عنـوان كبـير في الصفحـة الأولى.

«دخـل مجهولـون شـقة الممثلـة إحسـان ليلـة أمـس وأطلقـوا عليهـا النـار وعـلى أخيهـا الصغـير أيضًـا. سـمع سُـكَّان العمـارة

صـوت الرصـاص فأبلغـوا البوليـس الـذي وصـل عـلى الفـور، ويـدأ يحقـق في الحـادث. الحـادث غامـض لكـن ليـس هنـاك مـا يـدل عـلى أنـه ارتُكِـب مـن قِبـل الجماعـات الإرهابيـة. كذلـك ليـس هنـاك مـا يـدل عـلى أيّ قاتـل آخـر.. كانـت هنـاك خلافـات بـين الممثلـة وزوجهـا رجـل الأعمـال لكنهمـا انفصـلا منـذ عـام، وكانـا عـلى علاقـة طيبـة بعـد الانفصـال. كانـت الممثلـة قـد تعرَّضـت لانتقـاد عنيـف مـن قِبـل الجماعـات الإرهابيـة بعـد فيلمهـا الجديـد الـذي اضطـرت الرقابـة إلى منعـه بعـد أن كانـت صرَّحـت بـه مـن قبـل. هـذا أول حـادث مـن نوعـه لممثلـة. لقـد أصـدرت أكـثر مـن جماعـة إرهابيـة أنهـا ليسـت لهـل علاقـة بالعمليـة. مَـن يسـتطيع أن يحـل اللغـز! هنـاك شـائعات بـأن الممثلـة كانـت في طريقهـا لطلـب اللجـوء السـياسيّ لإحـدى الـدول الأجنبيـة. مـا هـي هـذه الدولـة؟ وهـل الإشـاعات صحيحـة؟»

ارتدى ملابسه وأخذ طريقه إلى برج العذراء.

عندمـا وصـل كان في نيّتـه أن يجلـس وحـده، خاصـةً والوقـت نهـار. إنـه يفكـر هـل يجـد حـلًّا للغـز مـوت إحسـان في رسـالتها؟ هـل لـو فتـح الرسـالة ووجـد فيهـا شـيئًا يفيـد التحقيق سـيقدِّمه للبوليـس، وإذا قدَّمـه فهـل لـن يجـر عليـه المتاعـب؟ لكـن مـا إن دخـل البـار حـتى هتـف البارمـان:

- سالم بك وصل يا أسعد أفندي...

ورأى أسـعد جالسًـا في ركـن بعيـد يـشرب البـيرة في خشـوع. للحظـةٍ فكَّـر أن يتراجـع، وللحظـةٍ أخـرى فكَّـر أنـه يمكنـه أن

من يديه أير صغير يضغط عليه لحظة فيتمدد، ثم يعود يُرخي قبضته فينكمش الأير ويردد بين الأيرين بصره ويقفز ضاحكًا.. الأفضل أن يقتل فرح. لو قتله انتهت كل كوابيسه. لكن فرح خرج مرةً أخرى من الباب المغلق حاملًا معه الأيرين.

في الحمام، وهو تحت الدش، فكَّر أنه من الأفضل له عدم الذهاب إلى برج العذراء. على الأقل لعدة أيام، ولو طالت يكون أحسن، أسعد سعيد مريض بالسرطان ويبدو من الألم الذي ينتابه أنه سيهلك وحده..

ثلاثة أيام بعد ذلك ظلَّ يحلم حُلمًا واحدًا. يدخل إلى مسرح كبير فيه كل نجوم الكوميديا فيراهم مُعلَّقين على ستارة المسرح الكبيرة، صاعدين هابطين كالحشرات، والجمهور صاخبٌ بالضحك، ثم يمشي في طرقة طويلة مفروشة كلها بضفادع تضحك. حُلم لم يفهم مغزاه أبدًا. وفكَّر في انقطاع البنات عن الحضور إلى مكتبه، وأنه لم يستقر على سكرتيرة منهنَّ، وأنهنَّ أخذنَ منه نقودًا كثيرةً واختفينَ، ووداد بدورها لم تعُد تأتي. وتذكَّر أنه لم يقرأ بعدُ قِصة الممثلة إحسان، وكانت صحف الأيام السابقة مُلقاة بإهمال على المكتب، فجلس يقرأ بعض صفحاتها.

اغتيال الفنانة إحسان على يد مجهول.. عنوان كبير في الصفحة الأولى.

«دخل مجهولون شقة الممثلة إحسان ليلة أمس وأطلقوا عليها النار وعلى أخيها الصغير أيضًا. سمع سُكَّان العمارة

صوت الرصاص فأبلغوا البوليس الذي وصل على الفور، وبدأ يحقق في الحادث. الحادث غامض لكن ليس هناك ما يدل على أنه ارتُكِب من قِبل الجماعات الإرهابية. كذلك ليس هناك ما يدل على أيّ قاتل آخر.. كانت هناك خلافات بين الممثلة وزوجها رجل الأعمال لكنهما انفصلا منذ عام، وكانا على علاقة طيبة بعد الانفصال. كانت الممثلة قد تعرَّضت لانتقاد عنيف من قِبل الجماعات الإرهابية بعد فيلمها الجديد الذي اضطرت الرقابة إلى منعه بعد أن كانت صرَّحت به من قبل. هذا أول حادث من نوعه لممثلة. لقد أصدرت أكثر من جماعة إرهابية أنها ليست لها علاقة بالعملية. مَن يستطيع أن يحل اللغز! هناك شائعات بأن الممثلة كانت في طريقها لطلب اللجوء السياسيّ لإحدى الدول الأجنبية. ما هي هذه الدولة؟ وهل الإشاعات صحيحة؟»

ارتدى ملابسه وأخذ طريقه إلى برج العذراء.

عندما وصل كان في نيّته أن يجلس وحده، خاصةً والوقت نهار. إنه يفكر هل يجد حلًّا للغز موت إحسان في رسالتها؟ هل لو فتح الرسالة ووجد فيها شيئًا يفيد التحقيق سيقدِّمه للبوليس، وإذا قدَّمه فهل لن يجر عليه المتاعب؟ لكن ما إن دخل البار حتى هتف البارمان:

- سالم بك وصل يا أسعد أفندي...

ورأى أسعد جالسًا في ركن بعيد يشرب البيرة في خشوع. للحظةٍ فكَّر أن يتراجع، وللحظةٍ أخرى فكَّر أنه يمكنه أن

يجلس بعيدًا ولا يشعر به أسعد الذي يبدو مستغرقًا في الشرب متوحِّدًا معه، لكن أسعد كان قد رفع رأسه إليه بعد نداء البارمان، ولم يعُد الجلوس بعيدًا عنه مُمكنًا...

باغته أسعد بالقول بهدوء:

- أرجوك لا تقتلني. لا تفكِّر حتى في قتلي. إنها ليست قصتك. هي قصة كاتب ظهر في الحياة الأدبية فجأةً منذ سنوات طويلة ثم اختفى. كان اسمه فيما أذكر رشاد. راشد رشاد. صحيح هو اختفى تقريبًا مع موعد اختفائك نفسه، لكن لا وجه شبه بينكما..

نظر إليه ولم يتكلم. وضع البارمان أمامه زجاجة بيرة وكوبًا وقال:

- هل معقول أن يقتل الأخ أخاه؟

كيف سمع كلام أسعد حقًّا مع أنه كان تقريبًا يهمس؟ وواصل أسعد الحديث:

- ثم إن حياتي صارت محدودة. بقائي في الدنيا قليل. ربما أسبوع أو عشرة أيام..

كان أسعد بالفعل شاحبًا جدًّا. ودخل الفتى صاحب الشيء فجأةً وأخذ مكانه.. بدا عصبيًّا جدًّا ونادى البارمان بصوت غليظ فأقبل عليه مُسرعًا وانحنى يفك له أزرار بنطلونه، فصرخ فيه:

- أنا أريد البيرة. اترك البنطلون. خلاص. البلد امتلأت بالأيور يا روح أمك..

انتبه راشد إلى صاحب الشيء لكن أسعد همس له:

- صاحبنا فقدَ عقله!

سـكت راشـد، لـم يـرد. كان النـادل قـد تراجـع بسرعـةٍ، وأحـضر زجاجـة مـن البـيرة وضعهـا أمـام صاحـب الـشيء مـع قليـل مـن الترمـس، وبـدأ صاحـب الـشيء يـشرب غـير مهتـم بحضورهمـا.

- شكله هكذا مُقدِم على جريمة قتل.

قـال أسـعد فتململ راشـد مـن حديـث القتـل الـذي يتكـرر اليـوم. وعـاد أسـعد يقـول:

- في الحقيقـة منـذ يومـين وهـو عـلى هـذا الحـال. منـذ أذيـع نبـأ اغتيـال الممثلـة إحسـان.

- أنا أيضًا حزين من أجلها جدًّا.

فكَّر أسعد قليلًا ثم قال:

- أظن أنها تركت معك مظروفًا به قِصة حياتها.

تردد راشد لحظةً، ثم قال:

- لقد قالت ذلك، لكني نسيت أن آخذه منها.

- مسـكينة. مَـن كان يصـدق أنهـا يمكـن أن تحـضر إلى بـرج العـذراء. لقـد اختفـت فـترة طويلـة. يبـدو أن حضورهـا إلى هنـا كشـف مكانهـا حقًّـا.

أحـسَّ راشـد بالحـزن حقًّـا مـن أجلهـا.. هـل يمكـن أن يكـون

هـذا هـو سـبب قتلهـا فعـلًا؟ هـل عليـه أن يتحمَّـل مسـئولية ذلـك باعتبـاره الـذي دعاهـا إلى بـرج العـذراء؟ قـال:

- يبدو أن حياتها كانت صعبة ومليئة بالأسرار.

- لـو كانـت تركـت لـك المظـروف، ربمـا كنـت عرفـت شـيئًا يسـاعد البوليـس عـلى التحقيـق..

لـم يـرد راشـد.. حـتى لـو وجـد شـيئًا في المظـروف فلـن يخـبر بـه أحـدًا. الأفضـل أن لا يفتـح المظـروف، بـل الأفضـل أن يتخلـص منـه...

راحـا يشربـان البـيرة في صمـتٍ، فكَّـر خلالـه راشـد في هـذه الأسـماء العجيبـة الـتي يحملونهـا. سـالم سـليمان الـذي لـم يظهـر حقيقـةً حـتى الآن ويبـدو أنـه قـد مـات أو قُتـل، راشـد رشـاد الـذي يـكاد يفقـد عقلـه، أسـعد سـعيد المريـض شـديد التعاسـة. إن أيّ مؤلـف لا يحـب الوصـول إليهـا بهـذا المعـنى، لقـد جـاءت صدفـة، ومَـن يعرفهـا يتصـور أن لهـا دلالـة ومعنى.. لقـد صـارت لهـا دلالـة حـين التقـى كلٌّ منهـم بالآخـر. فـلا يعرف أحـد أن سـالم لـم يعُـد سـالمًا غـير راشـد، ولا يعـرف تعاسـة أسـعد إلا راشـد أيضًـا، وراشـد نفسـه يبـدو فاقـد العقـل، فهـو الـذي اسـتولت غصـن عـلى أموالـه ودخـل السـجن ثـم غـادر البـلاد وانقطعـت أخبـاره.. ثـم إن الجميـع ينادونـه بسـالم. راشـد إذًا غـير موجـود، وفي كل الأحـوال فهـذه الأسـماء تتآمـر عـلى أصحابهـا!

- ما رأيك تتغدى معي اليوم؟

قال أسعد، ثم أردف:

- أعـرف محـلًّا يقـدم أعظـم نيفـة في المدينـة. في المنطقـة الشـعبية الجديـدة. هـي منطقـة عشـوائية في الحقيقـة، لأن المناطـق العشـوائية الـتي تقـوم عـلى الهامـش تظهـر تقريبًـا كل يـوم، لـم يعُـد أحـد ينشـغل بإطـلاق الأسـماء عليهـا. المنطقـة الـتي بهـا الـدكان هـي أحـدث مـا ظهـر. أي واللـه...

هـو لا يحـب النيفـة، لا يحـب أكل لحـم الماعـز عمومًـا. الماعـز حيوانـات مخربـة إذا أطلقـت عـلى أي منطقـة خـضراء أجدبتهـا. رأى ذلـك في الصحـراء، ويقـول البـدو دائمًـا ذلـك، لكنهـم يستمرون في تربيـة الماعـز إلا أنـه لا يحـب لحمهـا أبـدًا.

أمـه كانـت تقـول عنـه زمـان أن عصبيتـه الزائـدة لأنـه رضـع مـن لـبن الماعـز الـذي كانـت تبيعـه لهـم بدويـة احتلـت خرابـة قريبـة مـن بيتهـم وربَّـت فيهـا الماعـز والشـياه. عـلى أيِّ حـال هـو يحتـاج أن يلـبّي دعـوة أسـعد سـعيد ليظهـر لـه حُسـن نوايـاه عـلى الأقـل، ولأن أسـعد فعـلًا يبـدو مُقبـلًا عـلى مـوت أكيـد..

قبـل انصرافهمـا توقَّـف راشـد أمـام صاحـب الـشيء، وقـال دون قصـد:

- هل كنت تحب الممثلة إحسان؟

- مَن لم يكن يحبها يا أستاذ؟

- إنني حزين لأجلها مثلك بالضبط.

قال صاحب الشيء في حزن.

- كانت تـزورني كثيرًا في أحلامـي. تعـرف أنهـا يـوم جـاءت إلى بـرج العـذراء لـم أصـدق. ظللـتُ أنظـر إليهـا وأسـأل نفـسي هـل هـذه حقًّـا إحسـان الـتي تـزورني كل ليلـة في المنـام؟ كنـت أود لـو كلّمتُها..لـم أسـتطع. تركتكـم ومشـيتُ. كان هــذا هــو السـبب الوحيـد لانـصرافي بسرعـة -أجهـش بالبـكاء- لـم تعُـد لي امـرأة أنـام معهـا، لا في اليقظـة ولا في المنـام يـا أسـتاذ.

......

مشـيا وسـط أزقّـة ضيقـة موحِلـة، بيـوت مـن طـوب عشـوائيّ وصفيـح. ليـس هـذا غريبًـا عليـه. إنهـا مشـاهد قديمـة رآهـا كثـيرًا في طفولتـه في العشـوائيات الـتي تحيـط بمدينتـه السـاحلية، وحـول العاصمـة حـين أتى في شـبابه باحثًـا عـن المجـد والشـهرة. ليـس هنـاك مجـال للدهشـة إذًا. أدهشـه فقـط كـثرة المطاعـم الـتي عـلى الأرصفـة، مطاعـم مكشـوفة لا جـدران حولهـا، والجـو بـارد لكنـه مُنعـش، وخلـف كل مطعـم غرفـة هـي الـتي فيهـا يتـم تجهـيز الطعـام. مقاعـد مـن قـش وخشـب قديـم، ومناضـد مـن خشـب أسـود خشـن غـير منتظـم، ونـاس كثـيرة تـأكل. أطبـاق قـذرة بهـا طعـام سـاخن تصعـد منـه أبخـرة تبعـث عـلى الـدفء حقًّـا. للحظـةٍ فكَّـر أنـه لا شيء هنـا يشـجِّع عـلى الأكل غـير هـذه الأبخـرة. أمـام واحـد مـن هـذه المطاعـم توقّـف أسـعد سـعيد يقـول:

- هـذا أحسـن مطعـم يقـدِّم النيفـة في البـلاد. لا يُضايقـك مظهـره.

كان هنـاك زحـام مـن رجـال وشـباب يبـدون فقـراء للغايـة،

وكانـت هنـاك منضـدة خاليـة تنتظرهمـا.

أقبـل عليهمـا رجـل طويـل جـدًّا، عـالٍ مثـل جمـل، لـه ذقـن رفيعـة مثـل جـدي، يرتـدي جلبابًـا طويـلًا واسـعًا قـذرًا حـال لونـه عليـه بُقـع مـن الأطعمـة وجـذاذات مـن شـعر الماعـز ودم ودهـن وفي فمـه الواسـع أكـثر مـن سِـن ذهـبي. وشَـعر رأسـه بعضـه أصفـر وأغلبـه أسـود مُجعَّـد، وعـلى أنفـه حسـنة ضخمـة مثـل زلطـة سـوداء تـكاد تقـع، وشـاربه محلـوق تمامًـا، وفي قدميـه شبشـب قديـم.

هـذا الرجـل هـو النـادل الـذي تقـدَّم يسـألهما عـن طلباتهمـا. سـألهما وراح يمسـح المنضـدة الوسـخة بفوطـة هـي في الأصـل قطعـة مـن الخيـش صـارت سـوداء. كان راشـد يشـعر بسـن مسـمار في المقعـد راح يخـذه في فخـذه، فاختفـت رغبتـه في الهـروب مـن المـكان وفكَّـر عـلى نحـو مفاجـئ أنـه لـو أبـدى هـذه الرغبـة لأسـعد سـعيد سـتنطلق رصاصـة مـن مـكان مـا تُرديـه قتيـلًا، ثـم شـمله إحسـاس عجيـب بـأن المسـمار ليـس طويـلًا، بـل إن سـنه البـارز يمكـن احتمالـه، وأكـثر مـن ذلـك راح يتلـذذ بوخـذات المسـمار كلمـا تحـرك مُتململِـلًا...

في البدايـة جـاءت أطبـاق السـلاطة، طحينـة وطماطـم بالبصـل والخيـار والجرجـير. أطبـاق مـن الألمنيـوم الرخيـص مطرّمـة المحيـط بهـا نتـوءات واضحـة ونُقـر صغـيرة تـدل عـلى أنهـا مصنوعـة في خرابـات، ثـم ألقـى النـادل بينهمـا بخمسـة أرغفـة بلـدي بطريقـة جعلـت الـرَّدة العالقـة بهـا تطـير حولهـا وتتناثـر عـلى المنضـدة. «مـا علينـا. سـأتحمَّل هـذا كلـه، ولـن

أعـود إلى هنـا مـرةً أخـرى، المهـم أنـني أرى أمامـي أشـياء حقيقيـة وليـس خيـالًا!» كان النـادل قادمًـا بطبقـين مـن النيفـة الموضوعـة فـوق فـرش مـن البقدونـس. قطعـة لحـم كبـيرة حقًّا لهـا رائحـة زكيـة ممـا جعـل أسـعد سـعيد يبتسـم، ثـم ألقـى النـادل بينهمـا بعـدد وافـر مـن الملاعـق والشـوك والسـكاكين الرخيصـة.

- ما رأيك؟

تساءل أسعد سعيد مبتسمًا:

- لا بأس.

- ما رأيك في طبق طبيخ؟

- لا. لا أحب الطبيخ.

سمعه النادل فقال:

- ومَـن يحـب الطبيـخ في البـلاد يـا أسـتاذ؟ لكـن مـا دام صاحبـك طلـب منـك أن تـأكل توافـق.

سكت. لـم يعلّـق. خـاف أن يأخـذه حديـث النـادل إلى الخيال أو الجنـون. قـرر أنـه حـين يـأتي النـادل بالطبيـخ لا يرفـض ولا يـأكل أيضًـا، ثـم إن قطعـة النيفـة كبـيرة تكفيـه وزيـادة..

راح يقطـع بالشـوكة والسـكينة قطعـة صغـيرة مـا إن وضعهـا في فمـه حـتى سـمع صوتًـا مُفزعًـا لعـدد مـن القطـط تـصرخ وتمـوء. صـوت متوحِّـش سريـع وقـويّ أفزعـه بالفعـل، وأفـزع أسـعد سـعيد.

نظـر فوجـد عـددًا مـن القطـط اختلطـت ألوانهـا الصفـراء والسـوداء والبيضـاء تتصـارع عـلى قطعـة مـن العظـم وسـط الزقـاق. هـزَّ رأسـه وقطـع القطعـة الثانيـة مـن النيفـة ومـا إن وضعهـا في فمـه حـتى سـمع صراخًـا خلفـه هـذه المـرة. نظـر لأسـعد سـعيد الـذي قـال:

- كُل ولا تهتم. القطط أكثر من الناس الآن.

ومـع القطعـة الثالثـة ازداد الـصراخ خلفـه وفي وسـط الزقـاق. توقَّـف لحظـةً ورأى النـادل يقـف بعيـدًا ينظـر إليـه باسـتنكار، فعـاد إلى الأكل وهـو يسـأل نفسـه كيـف حقًّـا تجـوع القطـط إلى هـذا الحـد في حـيّ امتـلأ بالمطاعـم! لكنـه سـمع صراخًـا مـن نـوع آخـر. صراخ آدمـيّ يختلـط بـصراخ القطـط.

- لا تهتم.. قُلت لك.

قـال أسـعد سـعيد، لكنـه لـم يسـتطع إلا أن يهتـم. رأى في الزقـاق القطـط تتصـارع الآن مـع طفلـين حـول عـدد مـن قطـع العظـم الصغـيرة ألقـى بهـا نـادل أحـد المطاعـم المجـاورة إلى الشـارع. الطفـلان يهوشـان بالهجـوم عـلى القطـط فتتراجـع ثـم تهاجمهمـا القطـط فيتراجعـان. كانـا شـبه عاريـين وحافيـين وعَلَتْهُمـا أوسـاخ كثـيرة، كانـا ولـدًا وبنتًـا لا يمكـن التميـيز بينهمـا إلا بالتدقيـق الشـديد. بـدأ يشـعر بالامتعـاض الـذي زاد وهـو يـرى الجالسـين في المطاعـم يأكلـون لا يأبهـون بمـا يـدور ولا يتوقفـون عـن الأكل، بـل إن أحدهـم دخـل المعركـة بـأن ألقـى قطعـة مـن اللحـم فجـرَتْ إليهـا القطـط والطفـلان، وظهـر عـدد مـن الـكلاب الضالّـة فجـأة دخـل المعركـة بـدوره

وارتفعت ضحكات من عدد من رواد المطاعم، وانتبه هو إلى أنه لا يرى كلابًا بالفعل، بل إن عددًا من الأطفال هو الذي ظهر فجأةً منضمًّا إلى الطفلين بشكل جعله يراهم مثل كلاب صغيرة، ثم رأى كل الذين يضحكون لهم أفواه مفتوحة بلا أسنان، لكنَّ قطتين أقبلتا من الزقاق الأيمن وطفلين من الزقاق الأيسر فألقى أحد الجرسونات بعدد من قطع العظام ليجري الجميع نحوَها ولم يتوقف بعدها ظهور الأطفال والقطط من كل الأزقة. وفيما يبدو صارت البلد أمامه كلها منقسمة إلى قطط وأطفال. قطة تجرى إلى عظمة فيضربها طفل بقدمه وينحني مُسرعًا ليتناول العظمة فتخمشه قطة أخرى تضربها طفلة فيستطيع الأول أن يضع قطعة العظمة في فمه بسرعة يُمصمِصها مبتسمًا، والطفلة تنتظره حتى إذا انتهى من المصمصة قدَّمها إليها، لتضعها بدورها في فمها وتمصمص فيها بلذَّة مُدهشة، وراح الأطفال الذين فازوا بقطع العظم يشفطون النُّخاع الذي بينها وهم يبتعدون لحظات عن المعركة، ثم إذا قدَّموا قطع العظم بعد ذلك لزملائهم جروا ليدخلوا المعركة من جديد ضد القطط. موجة إثر موجة، كانت تأتي القطط والأطفال فتوقف راشد عن الأكل تمامًا...

- لماذا لا تأكل؟

سأله أسعد سعيد، ثم أضاف:

- عندك حق. المشهد صعب ولا يمكن تحمُّله.

لم يرد، فاستمر أسعد يتحدث:

- لكـن هـذا يحـدث هنـا دائمًـا، وتقريبًـا في كل مـكان بـه مطاعـم شـعبية.

ظلَّ راشد ساكتًا.

- اسمح لي أن أستمر في الأكل. سوف أموت بعد أيام كما تعرف..

كان راشـد يعجـز الآن عـن التميـيز بـين القطـط والأطفـال، فالجميـع تحولـوا أمامـه إلى قطـط كبـيرة الحجـم جـدًّا، ولـولا أن النـادل أقبـل يحمـل طبقـين مـن الطبيـخ لاستمر في خيالـه المجنـون.

وضـع النـادل الطبقـين أمامهمـا، ثـم راح يمسـح مخاطـه السـائل مـن أنفـه بكـمِّ جلبابـه، ويقـول:

- لا مؤاخذة. واخد برد ابن متناكة. لكن الفاصوليا ممتازة.

و أشار إلى الطبقين..

أشـاح راشـد بوجهـه عـن النـادل، ونـزل -لا يـدري لمـاذا- إلى أسـفل بعينيـه، فـرأى تحـت جلبـاب النـادل شـيئًا بـارزًا جـدًّا إلى الأمـام. الرجـل يبـدو منتصبًـا بقـوة. أشـاح بوجهـه إلى الشـارع. كانـت المعركـة قـد انتهـت وانتقلـت إلى زقـاق آخـر تـأتي منـه أصواتهـا. رأى أمـام الرصيـف المقابـل فتـاة صغـيرة تلمـع سـاقاها الرقيقتـان تحـت البنطلـون الضيـق الممـزَّق. أشـار إليهـا فقفـزت إليـه. وظهـر طفـل آخـر، لا يـدري مـن أيـن، يجـري إليـه مثلهـا. وقـف الاثنـان أمامـه مُبتسـمين، فأخـرج مـن جيبـه جنيهـين أعطـى واحـدًا لـكلٍّ منهمـا، ثـم ناولهمـا طبـق النيفـة

والفاصوليا والخبز وطلب منهما أن يأكلا على الأرض جواره حتى يدافع عنهما إذا ظهرت القطط.

ظهر طفلان آخران يقفان على الرصيف المقابل ينظران ناحيتهما ويتلمَّظان، فأشار إليهما. أسرعا يقفزان الزقاق إليه، فحمل طبقَيْ أسعد سعيد بما تبقَّى فيهما من فاصوليا ونيفة وقدَّمهما للطفلين. نظر إليه أسعد لحظةً، ثم قال:

- نستطيع إذًا أن ننهض. نشرب شايًا في مكان آخر..

- أستطيع أن أدعوك إلى غداء آخر في مطعم جميل إذا كنت جائعًا..

- لا داعي. انسدّت نفسي فعلًا. ما كان عليَّ أن أستمر في الأكل.

ترك راشد على المنضدة مبلغًا كبيرًا لم يفكّر حتى في إحصائه. أشار للنادل الذي كان يقف بعيدًا ينظر إليهما ساخرًا، فتقدم نحوهما يسبقه ذكرُه المنتصِب في جلبابه بشكل أطول من ذي قبل....

......

- هل تعرف أني طلَّقت زوجتي أمس؟

قال أسعد سعيد، وهما يمشيان، ردَّ راشد:

- أنا لم أعرف أنك متزوج.

- في العادة يتزوج الناس. هناك دائمًا المرأة المناسبة لكل إنسان.

- أنـا آسـف جـدًّا. يبـدو أن ظروفـك صعبـة أكـثر ممـا يتوقَّـع أي شـخص. لكـن...

لـم يكمـل، أراد أن يقـول لـه كيـف تفعـل ذلـك وأنـت مُقبـل عـلى المـوت. لكنـه سـكت، واسـتمر أسـعد سـعيد:

- لقـد سـاعدَتني كثـيرًا في حيـاتي الأدبيـة والفنيـة، لكنـني أنـا الـذي خيَّبـت أملَهـا. لـم أحقِّـق شـيئًا كمـا تـرى..

قـال راشـد في نفسـه «إذًا هـو مُشـفق عليهـا جـدًّا، وربمـا طلَّقهـا حـتى لا تصبـح أرملـة. ثـم فكَّـر أن وضـع الأرملـة الاجتماعـي دائمًـا أفضـل مـن وضـع المُطلَّقـة. ابتسـم. مـتى كانـت الأمـور واضحـة أمامـه؟

- لاحظـت في الفـترة الأخـيرة أنـني كلمـا ضاجعتهـا نامـت تحـتي. أي واللـه. وتشـخر أيضًـا بصـوتٍ عـالٍ...

قاوم راشد الضحك الذي راح يهز جسده، وقال:

- عجيب!

- ليـس عجيبًـا. جـاري أيضًـا طلَّـق زوجتـه الأسـبوع المـاضي للسـبب نفسـه، والـذي فـوقي في السَّـكن والـذي تحـتي. ذلـك يحـدث تقريبًـا في كل البيـوت مـن زمـان. الشـارع، المدينـة كلهـا الآن إمـا مُطلّقـين أو ذاهبـين إلى الطـلاق. كل النسـاء تنـام أثنـاء الجِمـاع وتشـخر. المدينـة أصابهـا فـيروس غريـب.

ثـم ضحـك أسـعد سـعيد بصـوتٍ عـالٍ لا يتناسـب مـع صِحتـه المعلولـة، وقـال:

- لقد ذهبت صباح اليوم إلى عملي متأخرًا كالعادة. إنهم يعتبرونني شخصًا ممسوسًا بالفن ولا يسألونني عن شيء. ذهبت فوجدت رئيس مجلس الإدارة ميتًّا في مكتبه والجميع يبكون. كانت الموظفات يبكينه ثم يتهامسن عن طريقة موته. مات وهو يضاجع سكرتيرته. أكثر من واحدة أقسمت أنها رأت آثار الجِماع على وجه السكرتيرة. وسمعت موظفة تقول لزميلتها وهي تبكي «شفتى يا أختي لباسها تحت البنطلون ملفوت إزاي؟ لبسته بسرعة» كانت تقصد السكرتيرة طبعًا. وقالت لها الأخرى وهي تبكي بحرقة «الله يكون في عونها. الواحدة تبقى تحت الراجل وبعدين يموت فوقها حاجة صعب قوي. دي يا أختي خضّة كبيرة وحاجة ما تتنسيشي».

وسكت لحظاتٍ هزَّ فيها رأسه مندهشًا مما يقول، ثم أضاف:

- مثلما مات أبو غصن في أمريكا.

ثم ضحك وقال:

- بيني وبينك السكرتيرة كانت كما العدّاد، رجل كل خمس دقائق.

«هذا رجل مُقبل على الجنون وليس على الموت». هكذا فكَّر راشد، بينما عاد أسعد سعيد يقول:

- ستة ملايين حالة طلاق حتى الآن. تصور أنت ستة ملايين رجل ومثلهم من النساء كانوا يدخلون في بعضهم

البعـض ثـم انفصلـوا وكرهـوا بعضهـم. هـذه قـدرات عجيبـة للشـعب تظهـر هـذه الأيـام. الكارثـة أن مسـألة النـوم والشـخير الحاليـة سـوف ترتفـع بالعـدد إلى عـشرة ملايـين وأكـثر.

- ربنا يستر.

قـال راشـد رشـاد، مُشـفقًا عـلى أسـعد سـعيد، الـذي اسـتمر يتكلـم:

- الجحيـم أهـون مـن امـرأة تنـام وتشـخر تحتـك. تضاجـع وسـادة أفضـل.

- فعلًا والله أفضل!

قـال راشـد رشـاد ذلـك، بـدلًا مـن أن يقـول يكفـي هـذا اليـوم، فقـال أسـعد سـعيد:

- لاحـظ أنـي أيضًـا لـم أضاجعهـا كثـيرًا بسـبب مـرضي، لكـن حـتى في المـرات القليلـة كانـت تنـام وتشـخر.

أراد أن يحول الموضوع، فتساءل:

- لماذا كان النادل منتصبًا طول الوقت؟

لا يعـرف كيـف ولمـاذا قـال ذلـك. ضحـك أسـعد سـعيد بقـوة كبـيرة جـدًّا. كيـف يضحـك هكـذا رغـم الهـزال والمرض!

- هل رأيته؟

- طبعًا، ولذلك أسألك.

ابتسم أسعد سعيد، وتحدث بهدوء:

- يا صديقى الكاتب الكبير سالم سليمان يبدو أن معلوماتك عن البلاد ضعيفة جدًّا. هذا رجل يعلن عن بضاعته. لقد نشر إعلانًا مدفوعًا في إحدى الصحف، إعلانًا عن بضاعته هذه، لكنه تعرَّض لمُساءلة وكاد يدخل السجن بسبب ذلك. لقد تم إغلاق الصحيفة من قِبل الدولة. صاحب الصحيفة هو صاحب المطعم الآن. أنت لا تصدقني. مؤكَّد. لكن في الزيارة القادمة سأقدمه لك لتتأكد بنفسك. هذا طبعًا إذا عشتُ لذلك اليوم.

وارتعشت شفتاه وبدأ جسده يهتز. ران عليهما صمت. كيف حقًّا مشيا هذه المسافة الطويلة يتكلمان! كان واضحًا أنهما سيفترقان.

وهو يقترب من موقف الحافلات صعدت شمسٌ شتويةٌ بديعةٌ فجأةً، واتسعت الدنيا حوله فغير رأيه وترك نفسه يمشي على شاطئ النهر. رأى شبابًا كثيرًا يلهون على الشاطئ، وظهرت فوق النهر المراكب الشراعية الصغيرة فوقها فِتيان وفتيات يغنون ويرقصون حول أصوات المغنين، التي ترتفع من أجهزة التسجيل. هذه دنيا حقيقية افتقدها كثيرًا منذ عاد من الخارج. رغبته في الانتقام سوَّدت الدنيا في عينيه. لقاءاته في البار سوَّدتها أكثر. الفتيات اللاتي يجئن إلى شقته أظلمنها تمامًا. لقد ارتكب حقًّا الكثير من الخطايا. إنه حقًّا واحد ينتمي لجماعة سوداوية المزاج، ميلانخوليين يسمون أنفسهم بالأدباء والفنانين. عربة بوليس بوكس صغيرة

تسمَّرت قريبًا منه وقفز منها شرطيان أمسكا بطفلين يبيعان المناديل الورقية وقذفا بهما داخلها وأسرعت.

«أوليفر تويست» رواية عظيمة كتبها «ديكنز» عن أيتام إنجلترا زمان. «جعلوني مُجرمًا» فيلم مصري أخرجه «عاطف سالم» عن أيتام مصر زمان أيضًا. جعلوني مُجرمًا تمصير للرواية الإنجليزية إلى حدٍّ ما. الراوية الإنجليزية والفيلم المصري.. الفيلم المصري والرواية الإنجليزية. لم تُعطه العربة البوكس الثانية الفرصة لإكمال الجملة التي يريد أن يقولها، نزل منها مخبرون راحوا يجرون وراء الأطفال. جرى مع الأطفال والشباب. بنات وصبيان. هل يجري أيضًا! لماذا حقًّا لم يركب الحافلة؟ لماذا يخاف ركوب سيارته حتى الآن؟ لكنه ظل يمشي بهدوء.

مشى كثيرًا تحت الشمس الطيبة التي لم تزل تُسبغ على الكون نعمها البيضاء. لو كان سالم سليمان هو الذي يكتب الآن لقال أن السُّحب السوداء تدافعت فوق المدينة البائسة، ولجعل أصوات الرعد تملأ الفضاء والمطر ينهمر. إنه لا يعرف من الذي يكتب قِصته الآن، ولا مَن يكتب قصة هذه المدينة. لقد رأيتك مع سالم كما قلت لك أيها الكاتب. رأيت كيف عاشرتما فتاة واحدة في وقت واحد من الناحيتين. إنني أمشي بين الضوء الباهر رغمًا عنك، والهواء المنعش القادم من النهر رغمًا عنك، مسكين لم يكن يعرف أنه يمشي داخل كتاب وأنه قطع كثيرًا من صفحاته. ربما لو أدرك أن النهاية اقتربت انتحر، ربما سافر. لكنه في كل الأحوال لن يُفلت من يدي. المؤلفون الخبثاء يستطيعون

مُلاحقة الناس حتى وهُم خارج الأوطان! راشد رشاد أو سالم سليمان، لا فرق. كلاهما يُصيب أي مؤلف بالجنون!

ظهرت من بعيد عربات حمّص الشام الملوّنة على جوانبها أرفف فوقها أكواب زجاجية ملوّنة أيضًا، وفي أعلاها أربعة أعلام مختلفة ألوانها، وعلى المقاعد البلاستيك فوق الرصيف عشّاق فقراء، وبدأ المغرب يتسلل إلى الدنيا، وليس لأن المؤلف يريد إسدال الستار على الأحداث. ولأنه مشتاق إلى كوب حمّص توقف أمام البائع العجوز الذي كان جواره طفل صغير جميل. بسرعة قدَّم إليه الطفل كرسيًّا جلس عليه. لا يعرف لماذا أولى ظهره إلى النهر وراح يتأمل العربة الجميلة والبائع العجوز النشط الذي تقدَّم نحوَه حاملًا صينية صغيرة بيضاء من المعدن فوقها كوب حمَّص وقدح صغير من الشطَّة والتوابل. وهو يمد يده يُمسك بالكوب لاحظ أن شيئًا يتقدَّم من جلباب العجوز الذي كان نظيفًا جدًّا، على عكس جلباب نادل المطعم. أغمض عينيه غير مصدّق. هل يتأكد الآن أن ما رآه من قبل، ويراه، خيال كله! لكن البائع قال:

- لا تشغل بالك.

نظر إليه مرتبكًا غير قادر على الكلام، فقال العجوز النشط:

- رغم أن النسوان الآن تنام وتشخر تحت الرجال.

ثم تركه وعاد إلى العربة وهتف وهو يصفّق للطفل الصغير.

- استعد ياله -ثم راح يرقص- بكرة من ده بقرشين. بكرة من ده بقرشين.. بدولارات ياله.

راح الطفل يبتسم، وراح هو إلى منطقة الحيرة وعدم الفهم العميق، ولما رآه العجوز كذلك عاد إليه وقد زاد انتصابه جدًّا وقال:

- أصل بكرة إن شاء الله سنبيع كلية من هذا الولد. تعال.. تعال.. بُص!

أخذه من يده يوقفه فوقف. أداره ناحية النهر وتقدم به إلى السور القصير الذي يحدُّه عن الرصيف، وقال:

- انظر حتى تصدِّق..

رأى عشرات الأطفال جالسين مثل ضفادع صغيرة في أوضاع القرفصاء.

وقال العجوز النشط:

- الشَّط سرير والسَّما غطا. الطفل منهم بعد أن يبيع له كلية أو دراع أو حتى عين يجد السرير الحقيقي والغطاء الصوف. أفضل من أن يصبحوا إرهابيين أو لا مؤاخذة خولات ومجرمين.

وقف مذهولًا إلى حدِّ الصَّدمة واستمر العجوز النشط يصفِّق ويضحك:

- كلية أو عين أو إصبع والدنيا تحلو والعيال تفرح وأنا أفرح والمريض يفرح -وبعد لحظة صمت- لا تظن أنهم بلا

أهـل، أقلّهـم كذلـك، أكثرهـم أهلهـم هـم الذيـن أحضروهـم إليَّ واترجـوني أقبلهـم. يـا سـلام. إنهـم فقـراء حقًّـا، لكـن ربـك جعلهـم سـبب سـعادة للأغنيـاء. طبعًـا. مـن يسـتطيع الآن أن يشـتري أي عضـو بـشري -وهمـس- مـا عدا هـذا العضو «وأشـار إلى أسـفل» هـذا مجانًـا، وبالمناسـبة أنـا لي أخ أصغـر مـني لكـن عنـده عضـو مُعتـبر. تقـول عضـو برلمـاني. أي واللـه. نـادل مهـم جـدًّا في مطعـم نيفـة جديـد ومشـهور تحـب أوصفـه لـك ربمـا تـأكل هنـاك. وتتفـرج عليـه بالمـرة. أكلمـه لـك عـلى المحمـول إذا كنـت مسـتعجل؟ عـلى الفرجـة أعـني..

في الوقـت الـذي شـملته رغبـة أن يسـدد لكمـةً للرجـل وجـد نفسـه يقـول في استسـلام:

- أعرفه. أكلت عنده اليوم.

- رأيته بنفسك؟

- أجل.

- رأيت كيف هو منتصب؟

- أجل..

- رغـم أنـه أصغـر مـني وبصِحتـه لكـن مـا عنـدي أكـبر، لذلـك هـو مخاصمـني دائمًـا. هاهاهاي..

هكـذا عـاد الرجـل إلى عربَتـه ضاحـكًا تـاركًا راشـد ينظـر إلى الأطفـال، لكنـه لـم يسـتطع النظـر أكـثر مـن ذلـك. عـاد إلى مقعـده وجلـس يكمـل شرب الحمّـص صامتًـا.

دفع جنيهًا للرجل ومشى. تاقت نفسه أن يرى فرح. فيما يبدو انشغل عنه كثيرًا، ولعلَّه حقًّا مع البنت التي أرادت أن تشتغل مومس. لو ظهر فرح فسيكون هذا دليل على أن كل ما رآه اليوم خيال محض. أن يكون مريضًا خير من أن يكون سويًّا. يا رب يسِّر وأعِن وأظهِر لي الآن فرح.

لكن فرح لم يظهر. في الحقيقة كان يمشي أمامه يسبقه إلى بيته مُحاطًا بعدد كبير من الأيور التي تجري على عجلاتها سعيدةً حولَه. كان فرح خبيثًا يريد أن يتمكن منه الحزن فأحاط نفسه بغلالة من العماء، لكنه أيضًا كان قد قرر أن يظهر له في البيت قبل أن يتمكن منه الحزن ويقتله. كان في الحقيقة قد قرر أن يمارس معه قليلًا من اللعب، ولم يكن يدري أن راشد رشاد كان يبتسم خلفه ساخرًا، ليس لأنه يراه، لكن لأنه أدرك فعلًا وعن يقين أن ما رآه اليوم حتى لو كان خيالًا فهو ليس أعمق مما رآه من قبل من خيالات.



- 8 -

تأكَّد له أن عقله يتشقَّق، فهو يقف في الصالة مُمسكًا بالدعوة التي كانت قد أرسلتها إليه السفارة الأجنبية ويقرأ تاريخها بعد أسبوع من الآن. هو إذًا لم يذهب من قبل ولم يحدث أي شيء مما كتبه. متى إذًا رأى الممثلة إحسان؟ ومَن التي ضاجعها؟ ثم هذا المظروف الذي أعطته له إحسان في برج العذراء. حضور إحسان نفسها إلى برج العذراء. لا يمكن أن يكون ذلك بسبب نشر الصحف لخبر وجوده..

كانت وداد في الغرفة الصغيرة عارية، وكانت أرضية الصالة مفروشة بالخطابات. إنها رسائل القرَّاء التي بدأت تصله بكثافة ولا يعتني بها. هتفت:

- خلاص.. أنا قلقت.

- انتظري، أنتِ السبب في كل هذه المصائب!

كان يقصد الرسائل. نهضت وأقبلت عليه عاريةً. رأى عانتها

صغـيرة ومهذبـة. لقـد هذبتهـا بحيـث تكـون مثـل صليـب معقـوف. صرخ مُشـيرًا إلى العانـة:

- ما هذا؟

- حتى تهزم النازية نفسها.

- نازية! هل عادت؟

وضحك بشراسةٍ، ثم أضاف:

- ثم إنني لم أعُد قادرًا.

ضحكت. صفَّقت.

وكان فـرح قـد دخـل مـن البـاب المغلـق ووقـف في الركـن يتابعهمـا، وفي كل يـد مـن يديـه أيـر يلعـب بـه.

- اسـمعي. اطلـبي بـرج العـذراء بالتليفـون وكلمـي صديقنـا صاحـب الـشيء واتركيـني أنـا أقـرأ رسـالة الممثلـة إحسـان..

- يا لهوي. صاحب الشيء هذا لا يُحتَمَل!

ضحك.. قال:

- طيب ادخلي نامي وفرح يقوم بالواجب.

قالت بدهشة:

- فرح. فرح من؟ الذي أحيانًا تكلِّمه؟

- بالضبط.

بانت عليها دهشة شديدة. قالت:

- سلامة عقلك يا أستاذ.

- صدقيني وادخلي نامي. أنا متأكد أنه سيقوم باللازم..

كان يرى السعادة تتقافز على وجه فرح. قالت:

- ذنبي في رقبتك إذًا.

وتركته ودخلت إلى الغرفة. أشار هو إلى فرح الذي بسرعة ألقى بالأيرين إلى الأرض ودخل مُسرعًا إليها.

أخرج هو مظروف إحسان من درج مكتبه، وجلس على المقعد ليقرأ.

......

لم يفُض المظروف، ولم يقرأ الرسالة. صوت وداد كان قد علا ويصل إليه غنجها وتهتُّكها. إن فرح السعيد يفعل فيها الآن بقوة. أما آن له أن يفكر جديًّا في فرح. هل هو كائن أثيري حقًّا اخترعه خياله أم كائن حقيقي له قدرات خارقة؟ وإذا كان أثيريًّا فإلى متى سيظل يمشي معه أو يظهر له؟ ولماذا يظهر حينًا ويختفي أحيانًا؟ وإذا كان كائنًا حقيقيًّا فكيف يخرج ويدخل من الأبواب والنوافذ المغلقة. وسرى ضوء كالشهاب أمام عينيه، ضوء مرَّ برأسه خارجًا منها أمامه وأدرك أنه إن لم يكن مجنونًا فهو مُقبل على جنون حقيقي.

ترك الرسالة تسقط من يديه وترك المقعد إلى الأرض مرتكزًا عليها بركبتيه وأخذ يمسك بالرسائل الكثيرة مختلفة الألوان والأحجام التي وصلت إليه في الأيام السابقة. ينظر

إلى الرسائل بحِدَّة ويزمّ شفتيه. هذه حقائق ماثلة بين يديه وليست أكاذيب. لا يكفي أي صحيفة أن يصلها خبر وصول أحد كتّابها لتنشر ذلك وتطلب من القرّاء مُراسلته. هل يذهب إلى صحيفته القديمة ويباشر العمل ولا يدري؟ لكنه لم يعمل من قبل في أيّ صحيفة. إذًا هو يذهب إلى صحيفة سالم، لكن كيف أن أحدًا لم ينتبه إليه؟

ترك الرسائل ووقف أمام المرآة. هذا وجهي يا ربي وليس وجه سالم فكيف تجري الأمور بي وإلامَ تنتهي؟

ورأى وداد تخرج من الغرفة مُمسكةً بيد فرح في يدها. كانت السعادة طافحة على وجه فرح وبدا وجه وداد شديد التورُّد من أثر اللذة وشديد الامتنان. كان كلاهما، هي وفرح، عاريين..

- من أين أتيت بهذا الإنسان الجميل؟

سألته وهي تشير إلى فرح الذي بدوره أفلت يده بهدوء منها وخرج أمامه من الباب المُغلق وهو يحمل ملابسه في يده..

- لماذا لا ترد عليّ؟

انتبه إلى سؤالها. انتبه إلى أن صوت وداد قد تغيَّر تمامًا.

- أين ذهب صوتك؟

اندهشت وتساءلت:

- هل لا تسمعني؟

- أسمعك. لكنك تقلّدين صوتي. لماذا؟

ابتسمت مندهشةً أكثر. قالت:

- هذا صوتي.

ثـم بـدا أنهـا اندهشـت بشـدة. لقـد أدركـت أن نغمـات صوتهـا قـد تغـيَّرت حقًّـا. لكنهـا بسرعـة ضحكـت وصفقـت، وراحـت ترقـص في الصالـة.

- أنت مجنونة؟

- أنـا فعـلًا مجنونـة. أو سـوف أُجَـنّ الآن. لقـد تغـير صـوتي بعـد أن نـام فـرح معـي. صـار صوتـك. أليـس كذلـك؟

وقف متحيِّرًا.. لم يرد.

- إذًا فـرح نـام معـك قبـلي ونقـل إليـك هـذا الصـوت مـن قبـل. أجـل صوتـك ليـس مثـل صـوت سـالم سـليمان، شـكلك لـم يتغـير لكـن الصـوت تغـير كثـيرًا! أجـل. أنـا منـذ رأيتـك أقـول كيـف تغـير صـوت الأسـتاذ سـالم وصـار أنثويًّـا هكـذا. هيـه. هيـه. فـرح نـام معـاك يـا أسـتاذ. فـرح نـام معـاك قبـلي..

وعـادت تصفِّـق وتضحـك وترقـص وهـو يقـف مندهشًـا، ثـم مبتسـمًا، ثـم اكفهـرَّ وجهـه وصرخ فيهـا:

- اخرجي برًّا يا بنت الكلب. لا يوجد شيء اسمه فرح.

وهجـم عليهـا فتراجعـت مذعـورةً. جـرت مـن أمامـه إلى الغرفـة وأغلقـت البـاب في وجهـه بسرعـة جعلتـه يصطـدم بـه، ولدهشـته لـم يسـتطع فتـح البـاب. تفصَّـد العـرق عـلى كل

جسده واشتعلت فيه النار فعاد إلى مقعده يجلس مُنهارًا يائسًا.

كثيرًا ما أمضى الليل سهران مع سالم في الصحراء. كان يسهر معه وسط الجبال الخضراء! ولكن سالم لم يكن أبدًا لوطيًّا ولا هو كان شاذًّا!

وسمع نهنهةً صادرة من خلف باب الغرفة , إنها تبكي وداد الجميلة. ما الذي فعله معها حقًّا؟ ما الذي يحدث معه منذ جاء إلى هذه البلاد؟ وقبل أن ينهض يطلب منها أن تصفح عنه وتفتح الباب سمع صوت الباب وهو ينفتح ورآها تقف أمامه حزينةً بائسةً وقد ارتدت ملابسها. قالت في انكسار عميق:

- لا تغضب مني. أنا أيضًا شاذة.. أنت تعرف. وإذا أحببت أن تنام معي الآن فلن أتضايق..

واقتربت منه بحيث صارت رأسه على بطنها وراحت تضمها إليها وتعبث في شعره بحنان. كان الطريق قد انفتح لدموعه دون بكاء..

......

- أسعد سعيد مصمم على الانتحار.

- مَن هو أسعد سعيد؟

- إلى هذا الحد نسيت؟

كانت قد أمضت الليل عنده، ظل طول الليل يحاول أن يصالحها فباشرها أكثر من مرة من الأمام.. كلاهما كان يثبت للآخر أنه غير شاذ. وحين كلَّمته الآن، مع أول ضوء في الصباح، كان هو يفكر في فرح وكيف أنه لا بُد من قتله. لا يكفي أن يكون طبيعيًّا في الجنس كي يكون طبيعيًّا في الحياة. لكن هل هناك من سبيل إلى ذلك! ثم ماذا فعل فرح المسكين حتى يفكر في قتله حقيقةً. إنه كائن جميل يتولى عنه الانتقام من المدينة، ويضحك دائمًا أمامه في أوقات عجزه وأوقات انتصاره أيضًا. وهو مجرد طفل يلهو، فكثيرًا ما ينزل جاريًا إلى الشارع ويعود وفي يديه أيرين يقف بهما أمامه يضغط على كل منهما فيستطيل حتى إذا كاد ينقسم إلى قسمين وتألم وبكى رغاء أبيض ينثال على محيطه ألقى به من النافذة لتدهسه السيارات المُسرعة.

- هل حقًّا نسيت أسعد كاتب السيناريو مريض السرطان الذي طلَّق زوجته منذ أيام؟

- أبدًا لم أنسه.

- هل تدري أنه خطبني؟

- خبر سارّ.

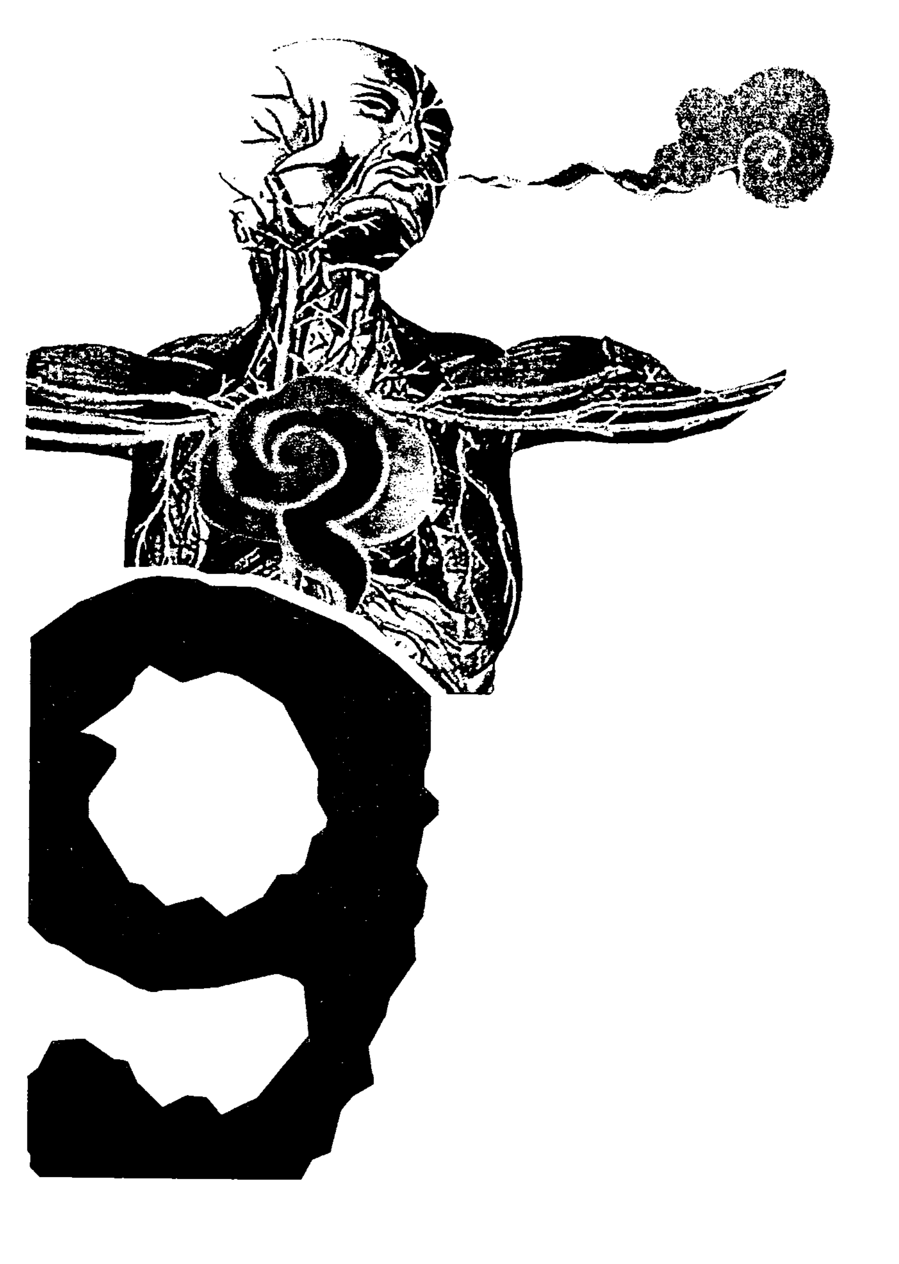
- أنا الذي خطبته في الحقيقة. أردت أن أهوّن عليه الأيام الباقية من حياته. مسكين لم يعد قادرًا على أي شيء.

سكتت قليلًا، ثم أردفت:

- هل تدري أنني جئت أمس لأخبرك أننا سنذهب به

اليـوم إلى مركـز عـلاج السرطـان؟ تعـال معنـا.

جذبتـه مـن ذراعـه فانصـاع لهـا، ليـس لأنـه فعـلًا قـد استرد عافيتـه، ولا جـزءًا منهـا، لكـن لأنـه رآهـا بحـق امـرأة جميلـة. لقـد تلاشـت فكرتـه القديمـة عـن الانتقـام، وزالـت رغبتـه في قتـل أسـعد سـعيد. إنـه يحتـاج إلى امـرأة حقيقيـة تأخـذ بيـده في هـذه البـلاد، وحـتى يـأتي ذلـك اليـوم لا مفـرَّ منهـا هـذه الفتـاة.



- 9 -

الوقـت ضحـى. أسـعد يقـف أمـام البـار الـذي لـم يفتـح أبوابـه بعـد. مـا إن ظهـر راشـد ووداد حـتى انفتحـت أبـواب البـار مـن الداخـل. لـم ينتبـه راشـد إلى ترحيـب أسـعد بهمـا.

- النادل نائم جوًّا البار ابن الكلب..

قالـت وداد ذلـك فابتسـم أسـعد، وابتسـم هـو. كانـت رائحـة الكحـول نافـذة في المـكان. وضـح لهـم أن النـادل لـم ينظـف المحـل، تـرك كثـيرًا مـن الزجاجـات المفتوحـة عـلى المناضـد وكثـيرًا مـن الكـؤوس بثمالاتهـا.

- هذه دورة مياه وليست بارًا.

قال أسعد، فابتسمت الفتاة، ثم عاد يقول:

- لقـد بثَّـت فيَّ الأمـل، خطبتـني وتريـد علاجـي وأنـا أعـرف أني سـأموت إن لـم يكـن غـدًا فبعـد غـد... إنهـا لعبـة جميلـة..

قال راشد:

- لكن قد ينفع العلاج.

صفَّقت وقالت:

- الحمد لله.. الأستاذ في صفّي.

أضاف هو:

- كما أن العلاج إذا لم يُفِد سيساعدك على أن تموت بلا ألم.

هتفت لأسعد وقالت:

- شفت؟ الموت بدون ألم. أهم حاجة الآن..

ابتسم أسعد ساخرًا. ووضع النادل أمامهم ثلاث زجاجات من البيرة وقال:

- أليس الوقت مُبكرًا على السُّكر؟

نظروا إليه، وقال أسعد:

- نادل وطبيب.. مع أنه يصطاد العيال بالليل في البار ابن الجزمة.

وانفتح الباب عن زبون آخر. كان مشهده مُريكًا جدًّا. رفيع نحيل يرتدي البنطلون الجينز لصاحب الشيء والبلوفر القديم لصاحب الشيء أيضًا لكن كان وجهه ورأسه ملفوفين بالشاش باستثناء عينيه وشفتيه، كذلك كانت ذراعاه مشدودتين إلى عنقه ملفوفتين بالجبس والشاش، وكان حافيًا. نظروا إليه صامتين من أثر الدهشة. ماذا يفعل شخص على هذا النحو في البار وفي وقت مبكر كهذا؟

استطاع هـذا الشـخص أن يجلـس وذراعـاه عـلى وضعهمـا. تألـم قليـلًا وهـو يجلـس وراح ينظـر إليهـم مـن بـين الشـاش. كان واضحًـا أنـه يبـكي.. هتـف النـادل:

- رحت المديرية يا فالح؟

اندفـع الشـخص المصـاب في البـكاء. لـم يكـن يسـتطيع الاهـتزاز. تألـم أكـثر مـن مـرة، وصـار في وضـع صعـب جـدًّا. لا يسـتطيع أن يوقـف البـكاء ولا يسـتطيع أن يسـتمر. بصعوبـة سـيطر عـلى اهـتزازات جسـده، وغـزارة دموعـه تجـاوزت الشـاش ونزلـت أمامهـم..

- أنتِ السبب.

قال وهو ينظر إلى وداد.. عرفته. ضحكت ثم هتفت:

- أنت رحت يا رفعت!

قال بصوت خفيض جدًّا:

- رحت.. وهذه هي النتيجة.

قالت بدهشة:

- أنـا كنـت أمـزح. أنـت صدقـت؟ يـا لهـوي، أنـت اتبهدلـت خالـص، يـا حبيـبي.

وقامـت لتجلـس جـواره. أرادت أن تحيطـه بذراعيهـا.. هتـف متألمًـا:

- استنّي. ابعدي ذراعك عني..

لكنها استمرت تضحك. قال أسعد:

- ماذا يحدث؟ ضحّكينا معك.

صفقت بيديها في استغراب. وقال النادل من بعيد:

- راح يا سيدي مديرية الأمن يقول لهم أن عنده حلًّا لمشكلة الأيور التي تمشي في شوارع البلد. خطيبتك قالت له لو رحت وأريتَهم ما عندك سيستخدمونه ضد كل الأيور الصغيرة التي صارت تمشي على الأرصفة مع الناس «ثم بعد لحظة» أنا لا أعرف لماذا لم أر أي شيء من التي يتكلم عنها الناس. حاجة تلخبط.

ضحك راشد رشاد بقوة. استرد عافيته بحق. بدأ يتذكر. يا إلهي. لم تكن الأيام السابقة إلا لعبة، كريهة كانت لكنها لم تزد عن كونها لعبة. إنه يذكر كل شيء الآن ويشعر أنه أقوى من كل شيء. لن يترك أبدًا هذه المدينة، ولن ييأس فيها. قال لصاحب الشيء:

- احكِ لنا الله يخليك. ماذا حدث بالضبط؟

هز رأسه فتألم، عاد وثبتها وراح ينظر إلى الأمام ويتكلم:

- رحت المديرية بدري. قلت لهم أنا عندي حل لمشكلة الأشياء التي تعاني منها البلد. أنا مولود بشيء عجيب ضخم جدًّا، يمشي على الأرض، يستطيع أن يقضي على كل الأشياء. لو تركتوني في كل شارع يوم انتهت المشكلة. المهم أن تمنعوا المرور في الشارع حتى أنتهي لأن الأشياء يمكن أن تأتي من الشوارع الأخرى.

صاروا يضحكون بصخب ويصفقون ويدبدبون بأرجلهم.

- وبعدين؟

هتف راشد سعيدًا جدًّا. تمنَّى الآن أن يحضر فرح ليقتله أمامهم. ليقول له أنه ليس سالم سليمان وأنه راشد رشاد، وأنه قتل سالم سليمان لأنه أراد أن يقتله، وأنه ألقى به من فوق الكوبري المعلَّق بين الجبال الخضراء، وأنه خلَّص الدنيا من شرّه الذي لا يعرفه أحد. الذي نجح في إخفائه عن كل البشر والذي لو حكى لهم عنه لاحتاج إلى مجلدات. ثم اندهش من نفسه كيف يفكر من جديد في قتل فرح. لكن صاحب الشيء استمر يتكلم:

نظروا لبعضهم قليلًا ثم قالوا لي «أرنا بضاعتك».. فتحت البنطلون وقلت جاءتني أكبر فرصة للشهرة، لكنه خذلني ولم يتحرك من مكانه، وهذه هي النتيجة..

وأشار بلسانه إلى وجهه ورأسه فاندفعوا في الضحك الصاخب مرةً أخرى، وطلب راشد أن يكون الشرب كله على حسابه، لكن وداد قالت:

- خلّي الشرب الكثير بالليل. نشرب في صحة أسعد لما نروح المستشفى ونرجع. أنا كلمت مدير المستشفى. قلت له أني صحفية وسأحضر ومعي المريض وسالم بك سليمان. حدَّد لي موعدًا الساعة الواحدة ظهرًا. يعني بعد نصف ساعة.

ووقفت. لم يكن أمام راشد وأسعد مفر من القيام..

- قف يا حيوان أنت وهو. واحد واحد يا أولاد الكلب..

بـاب المعهـد الحديـدي العريـض كان مفتوحًـا عـن آخـره. رجـلان ضخمـان كانـا يقفـان عـلى الناحيتـين، عـشرات السـيارات كانـت واقفـة حـول المعهـد بشـكل عطَّـل سـيولة المـرور في الشـوارع المحيطـة بـه. عـشرات التاكسـيات تقـف تلقـي بحمولتهـا مـن المـرضى والمصاحبـين لهـم وتختفـي في لحظـات. وكانـت هـذه أول مـرة يـرى فيهـا راشـد ذلـك. كان يسـمع كثـيرًا عـن المـكان لكنـه لـم يفكـر أن يقـترب منـه يومًـا.

كان الـذي يشـتم النـاس همـا رجـلا الأمـن. فجـأة رأى راشـد وأسـعد وداد تتعلـق بيديهـا تخنـق أحـد الرجلـين الـذي كان ضخمًـا جـدًّا بالنسـبة لهـا وتـصرخ فيـه:

- مـن هـم دول أولاد الكلـب يـا ابـن سـتين ديـك كلـب؟ هـؤلاء مـرضى ربنـا يمـرض أمـك، وإحنـا كتَّـاب وصحفيـين يـا دولـة وسـخة معرصـة..

في لحظـة اجتمـع عـدد كبـير مـن رجـال الأمـن، كان مـن بينهـم شـخص صغـير الحجـم جـدًّا، لكنـه يحمـل وجهًـا عجوزًا للغايـة، ويبتسـم. المدهـش أن ابتسـامته كانـت طفوليـة. تعطل دخـول النـاس فتكومـوا أمـام البـاب بشـكل ينـذر بالخطـر. كان راشـد قـد لاحـظ مـن قبـل أن سـيارات البيجـو الواسـعة القديمـة تـأتي كثـيرًا وتتوقـف فيـنزل مـن كل منهـا عـدد كبـير مـن الفلاحـين، رجـال وسـيدات وأطفـال، يـكادون لا ينتهـون، ولا يصـدق أبـدًا أن العربـة يمكـن أن تحمـل كل هـذا العـدد، ثـم في النهايـة يـنزل المريـض، خيـالًا ناحـلًا أصلـع زائـغ العينـين.

لماذا حقًّا يأتي كل هؤلاء الناس.. لا بُد أنهم يعتبرون الأمر فُسحة من القرية إلى العاصمة ليس أكثر، فالمريض ميت لا محالة. لكن هذا لا يبرر ثورة رجال الأمن على هذا النحو ولا شتائمهم المقذعة، لذلك صرخ فيهم حين تجمعوا حول وداد:

- أنا سالم سليمان أكبر كاتب في مصر أريد أن أقابل مدير هذا المستشفى فورًا وإلا تسببتم في نقله. بشرفي لو كتبت في الصحيفة عن هذه الفوضى لدخلتم السجن جميعًا.

توقفوا عن الكلام الكثير الذي كان ينطلق منهم في وقت واحد وتباعدوا. بدوا وكأنهم يريدون أن يتأكدوا ما إذا كان هذا الرجل هو سالم سليمان حقًّا أم لا.

للحظة أحس بالخوف. هنا والآن قد ينكشف سرّه. لكن رجال الأمن أشاروا إليه بالدخول هو وأسعد ووداد واعتذروا لهم.

قبل أن يصل إلى مكتب المدير كانت الاتصالات قد جرت لذلك وجدوه يقف في انتظارهم على باب مكتبه بنفسه. صرخت وداد:

- قبل أي كلام نريد أن تحاسب رجال الأمن على هذا السب العلني في المرضى ومن يصحبونهم.

قال المدير بهدوء:

- حاضر يا مدام. المهم الآن نعرف طلباتكم..

استمع إليهم، إلى ما يقاسي منه أسعد، إلى تاريخ المرض،

بـدا حزينًـا لأن أسـعد لـم يـأتِ مـن قبـل، فالسرطـان درجـات، وسـهل علاجـه حـين يكـون في الدرجـة الأولى أو الثانيـة، لكنـه إذا دخـل الدرجـة الثالثـة أو الرابعـة فالمـوت لا محالـة. المهـم الآن إجـراء الفحـوص.. ثـم قـال:

- سـتشربون القهـوة عنـدي، حـتى أجهـز لكـم كل شيء. وسـأعطيكم كارتًـا خاصًـا للدخـول مـن بـاب الأطبـاء بعيـدًا عـن بـاب الجمهـور المزدحـم.

ثـم ضغـط عـلى زر جـرس قريـب فحـضر طبيـب شـاب كلَّمـه بإنجليزيـة مُعقـدة، وكان قـد ضغـط قبـل ذلـك عـلى زر جـرس آخـر فدخـل فـرّاش طلـب منـه القهـوة. وهـم يشربـون القهـوة قـال المديـر متألِّمًـا

- هـذا المعهـد يعيـش عـلى تبرعـات أهـل الخـير. المـرضى الآن صـاروا أكـثر مـن مـرضى الأنفلونـزا. الأطبـاء يعيشـون عـلى رواتـب قليلـة. الأطبـاء الشـباب بالـذات. لكنهـم يحصلـون عـلى خـبرة كبـيرة لا تتوفـر لهـم في أوروبـا. إنهـم مُنهكـون جـدًّا قـد يمـضي الواحـد منهـم أسـبوعًا كامـلًا بـلا نـوم، ثـم إن المـرضى يموتـون مثـل الحـشرات، وهـذا مؤلـم جـدًّا، والـزوار يحـضرون معهـم مأكـولات ومشروبـات ويتركـون وراءهـم مخلفـات لـو رأيتـم حجمهـا بعـد أن يجمعهـا عمـال القمامـة لأصابكـم الجنـون.

وقال الطبيب الشاب:

- اتركـوا لي الأسـتاذ أسـعد وانتظـروا في اسـتراحة الـدور الأول جـوار قسـم الكوبالـت..

......

- أين أسعد؟

تساءل راشد فجأة. كانت ساعة قد مضت وهو ووداد جالسان في الاستراحة مع الصمت، فالمرضى الجالسون في انتظار دورهم لا يتكلمون والمصاحبون لهم أيضًا، الفارق الوحيد أن المرضى لا يتململون، بينما مرافقوهم يبدو عليهم القلق. المرضى لا يأبهون لمرور الوقت، فيما يبدو صارت لهم أفلاكهم الخاصة التي يدورون فيها خارج دائرة الزمن.

كان راشد قد فكر للحظات في هذا الصمت. فكر أن يكتبه. إنه موضوع يستحق الكتابة. الإنسان قد يجد صمتًا بالليل، صمتًا بعد سقوط الأمطار، صمتًا في غرفة النوم، صمتًا وهو يصطاد على شاطئ البحر، لكن هذا الصمت الذي حوله يختلف، أشبه بصمت الرهبان في الأديرة البعيدة. أجل. المكان مظلم كاب والسقف واطئ والناس تتحرك ببطء محنية رؤوسها. هذا مكان منقطع عن العالم. من الصعب جدًّا أن يفكر من يجلس هنا ولو للحظات أن هناك في الخارج دنيا صاخبة يتحرك فيها الناس. الاستراحة بئر عميقة مظلمة. حتى الكوَّة الصغيرة التي تفتح في الحائط بين حين وآخر، ويُسمَع منها صوت نسائي ينادي «زينب، أحمد، سعاد، محمد» لا تقطع الصمت، فالصوت يخرج مثل تنهيدة، والمريض ينهض مثل خيال، ويدخل من باب لا يراه، ولا يعود. إنه معمل الجلسات بالإشعاع، له باب

آخر يفضي إلى الخروج. لا بُد. والذي يغادر مكانه يحتله أحد الواقفين في صمت أيضًا.

بدأ يشعر أنه يتلاشى. قالت له وداد هامسةً «روحي تنسلب مني، يُخيَّل إليَّ أن أحدًا سينادي عليَّ لأدخل مع المرضى. أريد أن أغادر هذا المكان، فانتبه إلى أن ذلك يحدث معه، وسألها «أين أسعد؟». لقد أدركا أنه منذ اصطحبه الدكتور الشاب لم يعُد. كانت ساعتان قد مرتا كأنهما في صحراء ممتدة بلا هبَّة ريح.

- نقوم من هنا بسرعة.

قالت وداد فوقف راشد، لكن الشخص المجاور له، الصامت مثل الليل أمسكه من يده..

- انتظر قليلًا.

هكذا قال الرجل الذي انتبه راشد إلى أنه يجلس جواره! إنه لم يكن منتبهًا أيضًا إلى أن وداد تجلس جواره من الناحية الأخرى.

كان في صوت الرجل شيء غريب من الجاذبية. قوة خفية تحث راشد على الإذعان لمطلبه. جلس. تساءل الرجل:

- هل تأتي كثيرًا هنا؟

- لا.

- إذًا أنت سليم؟

- الحمد لله.

- لا بُد أن تأتي كثيرًا.

اندهش وارتبك، فأضاف الرجل:

- أنا آتي يومًا وأترك يومًا.

ابتسم وبدت على وجهه علامات سوء الفهم..

- هنـا أحسـن مـكان يأخـذ فيـه الإنسـان عظـة وعـبرة. أنـا لـو لـم آت هنـا كان زمـاني قاتـل أو عـاصي. الإنسـان حـين يـأتي هنـا يتعلـم أن يحمـد اللـه عـلى نعمـة الصحـة، ويتعلـم التواضـع لأن المـوت لا يفـرِّق بـين قـوي وضعيـف.

وجد حديث الرجل عجيبًا جدًّا.

- أنـا رئيـس جمعيـة التربيـة الجديـدة. ينضـم إليهـا كل مـن يريـد أن يأخـذ عظـة في حياتـه تنفعـه في آخرتـه. إن لدنيـا جـدول أعمـال مهـم جـدًّا أساسـه زيـارة المقابـر وزيـارة مستشـفيات السرطـان والفشـل الكلـوي وعـرض أفـلام الكـوارث الطبيعيـة والمذابـح والمجاعـات. معظـم أعضـاء الجمعيـة كانـوا نـاس جبَّاريـن، الآن يتكلمـون بهـدوء، ويمشـون بهـدوء، ولا يثـيرون أيَّ زوابـع في المجتمـع.. تصـور أنـني أرسـلت البرنامـج لوزيـر التعليـم لنبـدأ مـع النـاس مـن سـنٍّ مبكـرة، دعوتـه لإلحـاق طلبـة المـدارس الابتدائيـة بالجمعيـة فلـم يـرد علـيّ حـتى الآن.. هـل تعـرف طريقـة أسـتطيع بهـا التأثـير عـلى هـذا الوزيـر؟

- اتركـه يمـوت بـلا موعظـة. سـيندم كثـيرًا عـلى عـدم اسـتماعه إليـك..

قـال راشـد ذلـك ووقـف بسرعـة، فوقفـت وداد.. سـيبحثان

عـن أسـعد سـعيد.

......

في الطرقـة القريبـة مـن الاسـتراحة كان هنـاك صخـب شـديد. مطـر مـن الصخـب. كيـف حقًّـا لـم يسـمعا هـذه الأصـوات والطرقـة لا تبتعـد كثـيرًا عـن الاسـتراحة! مئـات الأرجـل ومئـات الأيـدي تتدافـع. في ثانيـة انفصـل عـن وداد. وجـد نفسـه وحـده. لا بُـد أنهـا عـادت إلى الاسـتراحة، لـم تتحمَّـل الزحـام، وإذا لـم يكـن ذلـك سـتعود في النهايـة. سـتفكر أنـه هـو بـدوره عـاد للاسـتراحة. سـيتقابلان. لا شـكَّ في ذلـك. أسرع في الطرقـة ذات الاتجاهـين. أخـذ الاتجـاه الأيمـن لأنـه أقـل ازدحامًـا. هـذا مستشـفى ولـه مركـز، هـو حجـرة المديـر. سـيصل إليهـا رغـم أنـه حـين تركهـا لـم يـأت مـن هـذه الناحيـة. لا يعـرف مـن أيِّ اتجـاه جـاء، لكـن لا بـأس..

«الأشـعة المقطعيـة والرنـين» لافتـة عـلى أحـد الأبـواب الموصـدة. فتـح البـاب ليسـأل مـا إذا كان أسـعد سـعيد قـد مـرَّ مـن هنـا. فصرخـت النسـاء العاريـات تحـت الأجهـزة في وجهـه، والتفـت إليـه طبيـب الأشـعة في غيـظ. كيـف حقًّـا لـم يطـرق البـاب، نـسي مـا كان يـود أن يسـأل عنـه، لأنـه فكـر كيـف رأى رجـالًا عـراة أيضًـا ينامـون تحـت أجهـزة أشـعة جـوار النسـاء، وكيـف كان لأحدهمـا أيـر منتعـظ. مـشى في الطرقـة يقابلـه عـدد كبـير مـن الرجـال الصُّلـع في طريقهـم إلى قسـم الكوبالـت، ونسـاء عـلى رؤوسـهن أغطيـة وشـيلان أدركهـن الصلـع أيضًـا. يعـرف أن العـلاج بالكوبالـت يفعـل ذلـك بالجميـع. وبـين الرجال

والنساء كان عـدد كبير مـن الأطفـال يجـري ورؤوسـهم صلعـاء تلمع تحـت أضـواء الطرقـة، لكـن الطرقـة ازدحمـت فجـأةً مـن إقبـال عـدد كبـير مـن المـرضى مـن اتجاهـين آخريـن، فـرأى نفسـه وسـط رؤوس كثـيرة صلعـاء، وفكـوك معوجـة، وأثديـة تصل إلى الـسُّرة، ومحاجـر خالية مـن العيـون، وأعناق منفوخـة تترهَّــل عــلى الأكتــاف، وأقفيــة تتــدلى عــلى الظهــر، وراكــبي العربـات بيـدٍ واحـدة بـلا ساقين، مشـاهد لـم يرهـا في أفـلام الرعـب! والجميـع يمشـون ببـطء وينثنـون ويتلفَّتـون ويسـتندون عـلى الجـدران حـتى يلتقطـوا أنفاسـهم، ثـم يعـودون يزحفـون تـنزل دمـوع بعضهـم فيتركهـا وبعضهـم يُخفيهـا وبعضهـم يمسـحها، ويتلفتـون جميعًـا لبعضهـم ثـم ينظـرون إلى السـقف الــذي بعــده الســماء. أجـل لا بُـد. لا أحـد يفكـر في أن فوقـه سـقفًا آخـر، وربمـا عـدة أسـقف، فالمستشـفى متعـدِّد الطوابـق. في النهايـة دائمًـا هنـاك السـماء الـتي تتسـع لدعـوات كل هـؤلاء الذاهبـين إليهـا. إنهـا تفتـح الأبـواب لهـم ولدعواتهـم بـلا شـك. هـذا هـو الطريـق الوحيـد الآن.

وظـل هــو يفتـح كل غرفــة تقابلـه في الطرقــة دون أن يقـرأ اللافتـة الـتي عليهـا، وفيهـا كلهـا كان يـرى أجهـزة ونـاس فـوق وتحـت الأجهـزة، ولا أحـد يقـول لـه أن شـخصًا اسـمه أسـعد سـعيد مـرَّ مـن هنـا، ونـسي أنـه يريـد حجـرة المديـر الـذي منـه سـيعرف أيـن أسـعد بالضبـط، ومـن كل الحجـرات كانـت تقابلـه وجـوه برمـة مـن الأطبـاء والممرضـات والمـرضى، وانتبـه إلى أنـه في الطرقـة يمـشي شـخص طويـل عريـض يمسـك بعصا خـيزران ينظـم بهـا النـاس، يرفـع العصـا دون أن يضربهـم، وقـد أطلـق

لحيتـه وزاغـت عينـاه عـلى بعيـد، ويهتـف: «مكانـك يـا محـترم. مكانـك يـا مريـض. دورك يـا أخ». ثـم انتهـت الطرقـة إلى ردهـة واسـعة أرضهـا بـلاط بـارد، فيهـا رطوبـة محبوسـة منـذ سـنين وأمامهـا مصاعـد ثلاثـة.

- إلى أين تذهب هذه المصاعد!

قـال لنفسـه، فوجـد جـواره شـابًّا لـم يكـن قـد انتبـه إلى وجـوده.

- إلى أعلى.

- أعرف. أقصد إلى أيِّ قسم؟

- إلى كل الأقسام.

أجاب الشاب مبتسمًا، فقال محاولًا أن يكتم غيظه.

- طيب. طيب. أنا أريد حجرة المدير.

- الأفضـل مـن الناحيـة الأخـرى.. لكـن مـا دمـت جئـت إلى هنـا فاصعـد معي.

وصـل المصعـد وانفتـح أمامهمـا. دخـلا. في المصعـد ظـل الشـاب ينظـر إليـه ويبتسـم. كان الشـاب قـد ضغـط عـلى زرار أدرك راشـد أنـه يخـص الـدور الـذي يقـع فيـه مكتـب المديـر. لمـا رأى الشـاب لا يكـف عـن الابتسـام أشـاح بوجهـه عنـه.

- أنت خائف؟

سأله الشاب الذي كانت عيناه متألقتين جدًّا.

- لا. لماذا أخاف؟

- كنت أظنك خائفًا. لقد ركبنا المصعد الواسع. لا ينزل فيه إلا الموتى. حظك حلو. لا موتى الآن. عادةً يكون الموتى بالليل..

ابتلع ريقه وقرر أن لا يرد عليه، لكنه قال:

- هل تعمل هنا؟

- أنا مريض.

قال الشاب ذلك مبتسمًا، ثم أضاف:

- لكن شفيت والحمد لله.

ارتبك للحظةٍ، ثم قال وصوت صرير العجلات التي يصعد بها المصعد يصل إليه.

- لماذا إذًا تبقى هنا؟

ابتسم الشاب وقال:

- أين أذهب؟ هنا سرطان وبرًا سرطان أكثر..

لم يعرف بماذا يجيبه. قال الشاب:

- أنا صديق المرضى. أؤدي لهم خدمات. تعبان أساعده على دخول الحمام. زعلان أسلِّيه. صوتي حلو. أعرف أغني. أغني لك؟

- لا شكرًا.

قال ذلك باسمًا، فاستطرد الشاب:

- حتى عنابر النساء لا تخشاني. يحبون غنائي. وبالليل أنام هنا. ليس لي حجرة للنوم. أنام في البدروم. في المشرحة مع الموتى. تومرجي المشرحة يجدها فرصة وينام ويعتمد عليَّ في حراسة الموتى. أنا لا أخاف أبدًا. تصوَّر أغني أحيانًا في المشرحة. يخيَّل إليَّ أنهم يسمعونني.

توقَّف المصعد وانفتح الباب فخرج بسرعة، وسمع الشاب يقول:

- أمامك قسم الباطنة. بعده المدير.

......

أبواب قسم الباطنة على الناحيتين في الطرقة الضيقة موصَدة كلها. أبواب وراءها مرضى يسكنون مع الموت الذي يجلس في الأركان مبتسمًا منتظرًا موعده. لم يطرق أيَّ باب. لم يفتحه. آخر باب كان مواربًا. لقد نسي أنه يريد المدير.. لكنه لم ينسَ أنه يبحث عن أسعد سعيد..

دفع الباب الموارَب برفق ليرى خلفه صالة مربعة كبيرة، وكان الذي يقابل الباب مباشرةً أمام الحائط المواجه تومرجية ضخمة تمسك في يدها بأنبوب رفيع ينتهي بكيس بلاستيك منفوخ بالمحلول الذي داخله. قالت:

- عيب يا أستاذ. هنا قسم العلاج الكيميائي الخاص بالنساء. أغلق الباب.

لكنه لم يغلق الباب. تجمَّد وعيناه تدوران في الجالسات في شكل أشبه بالدائرة داخل الصالة. نساء صامتات، على

رؤوسهن جميعًا أغطية، فقراء الملبس، أسلموا أذرعهن إلى أنابيب موصَّلة بمحاليل وأدوية مرفوعة على حوامل معدنية. نساء جلسنَ مع الصمت والشرود، لم ينتبهن إليه ولا إلى حديث التومرجية له. لكن في ركن كان هناك برميلان كبيران مبطنان بكيسين من البلاستيك الأسود الذي يستخدم في صفائح الزبالة. كانت تقف أمام كل برميل امرأة تتقيأ، ثم خرجت ممرضة صغيرة، حسناء إلى درجة مدهشة، من باب صغير أمامه مفتوح على هذه الصالة، صالة انتظار الموت، هكذا فكَّر للحظةٍ، وخلفها سيدة جميلة، طويلة، مُهندَمة، لكنها صلعاء تمامًا، نسيت غطاء رأسها في الداخل. كان على وجه المرأة ألم، وارتباك، والتفتت الممرضة الحسناء جدًّا إليها، وقالت المرأة بأدب وخجل:

- يا مدموازيل، العلاج لازم يكون كامل. هكذا لا يفيد.

نظرت إليها الممرضة الحسناء نظرة غيظ، ارتبكت المرأة جدًّا. وانتبهت التومرجية إلى أنه لم ينصرف، فهتفت:

- أنت الظاهر عليك بتاع نسوان صحيح. قلنا لك امشي عيب.

لكنه كان قد تسمَّر فعلًا في مكانه، يريد أن يمشي لكنه لا يستطيع. لقد جذبه بحق وجه الممرضة الجميل. سمراء لها عينان خضراوان، صغيرة الحجم مثل السيرلانكيات اللاتي رآهن كثيرًا أيام اغترابه في البلدة الصحراوية. كانت الممرضة تنظر إلى المرأة التي حدَّثتها نظرات طويلة، ثم قالت بهدوء:

- حتى لو كان الدواء كاملًا فهو لن يفيد. أنتم ميتون ميتون!

بان الذُّعر الشديد على المرأة الطويلة الصلعاء، لم تنتبه واحدة من المرضى لكلام الممرضة، لم تتوقف اللتان تتقيآن عن التقيؤ لكنهما الآن تتقيَّأن ببطء وإجهاد، وقالت التومرجية السمينة للممرضة:

- حطِّي لها يا سستر بديل دي غلبانة.

ثم نظرت إليه وهتفت.

- يا أستاذ أنت مجنون. إما مجنون أو خول!

هنا أغلق الباب، لكن ضحك الممرضة وصل إليه، وصوت التومرجية لم ينقطع، وصل إليه أيضًا وهي تقول:

- واقف متخشب كأننا فرجة إذًا هو رجل خول.

ابتعد في اندهاش شديد من نفسه كيف لم يرد عليها، لكنه سرعان ما ابتسم وهز كتفيه ومشى لتنتهي به الصالة إلى ردهة كبيرة شديدة النظافة، بها مرضى كثيرون أكثر أناقةً من المرضى الذين رآهم من قبل، رجال ونساء وأطفال لكنهم مثل غيرهم صامتون مثل أحجار مقيدة.. لو سأل أيًّا منهم لن يرد عليه. ومرقت من أمامه عربة عليها مريض يصرخ بزئير، ويدفعها تومرجي نشط اختفى بها بسرعة، فغاب الزئير كأنه سقط في بئر، وانفتح باب غرفة أمامه وخرج طبيب شاب يصرخ طالبًا السكوت من المرضى الذين نظروا إليه في ذهول. هل سمع صمتهم؟

فكَّر للحظةٍ مندهشًا، ثم تقدم إليه ليسأله، لكن باب غرفة أخرى انفتح وخرج منه رجل يكاد يتعثر، واضح أن أحدًا في الداخل دفعه بقوة، وإذا بطبيب شاب آخر يخرج وراء الرجل الذي بدا له مريضًا من شكل صلعته. ثم صرخ الطبيب الشاب في الرجل:

- لو شفت أمك هنا سوف أسلمك للبوليس.

ثم دخل وصفق الباب خلفه، بينما وقف الرجل المدفوع حائرًا في يده بعض أوراق -نظر إليها لحظة- ثم بدا عليه الألم والحزن ومشى منكسرًا في الطرقة الممتدة أمامه.

كان الطبيب الذي شتم المريض قد عاد وفتح الباب ونظر إليه. توجس منه. خاف أن يشتمه، لكن الطبيب ابتسم وسأل:

- حضرتك الأستاذ سالم سليمان؟

- أجل.

قال ذلك وهو يشعر أن طوق نجاة نزل إليه.

- لا تؤاخذنا. العمل صعب جدًّا هنا. تصوَّر! هذا المريض شفي تمامًا لكن لا يزال يحمل أوراقه ويأتي إلينا طالبًا أن يستمر في العلاج، لا يريد أن يقتنع أنه شفي. ليتك تساعدنا يا أستاذ. تكتب شيئًا عن هذا الجحيم الذي نعيش فيه.

- أرجوك أن تساعدني أنت وترشدني إلى مكتب السيد المدير.

قال ذلك دون أن يقصد أن يتجاهل كلام الطبيب. لقد تذكر فجأةً ما يريد. قال الطبيب:

- على يمينك. المكتب المقابل. هل تحب أن أصحبك إليه؟

- شكرًا.

انحرف يمينًا، بينما ظل الطبيب ينظر إليه. كان هو يفكر كيف حقًّا عرفه الطبيب الشاب الذي حين كان سالم هنا كاتبًا معروفًا كان هو بالتأكيد أصغر من ذلك كثيرًا جدًّا، ربما طالبًا في المرحلة الثانوية.. لعله قارئ من سِن مبكرة.. لكن لم يشأ أن يشغل نفسه بالأسئلة القديمة عمَّا إذا كان يحمل وجه سالم سليمان أمام الناس، ثم يعود إليه وجهه حين يكون وحيدًا.. لقد كفَّ عن رؤية وجهه في المرآة منذ أن رأى نفسه امرأة، بل ويحلق ذقنه دون أن ينظر في المرآة، لذلك كثيرًا ما ينسى مناطق صغيرة منها. لقد صار الآن أمام باب غرفة المدير فتنهَّد في ارتباك.. لعله أيضًا يجد وداد في داخلها..

دقَّ على الباب دقتين ضعيفتين ثم دفع الباب برفق. وجد الغرفة التي دخلها أول مرة كما هي لكن بلا مدير. نساء شابات ومتوسطات العمر جالسات في شبه دائرة يعلوهن جميعًا صلع تام، وتحت أرجلهن يجلس أطفال صلعاء أيضًا. لا يمكن أن تكون هذه غرفة المدير. لكن هذا هو مكتبه لا يخطئه واسمه على الهرم الحشبيّ الذي يتصدَّر المكتب، وها هي فناجين القهوة على المنضدة الصغيرة

أمـام المكتـب. وأوشـك أن يسـأل الجالسـات عـن المديـر لكـن يـدًا ثقيلـة صـارت عـلى كتفـه فجـأةً. التفـت ليجـد رجـلًا شـاحبًا جـدًّا وأصلـع أيضًـا.

- اخرج لو سمحت من هنا.

- أريد السيد المدير.

- هذه ليست حجرة المدير.

نظـر إلى الصمـت السـاكن حولـه في وجـوه النسـاء والأطفـال والعيـون الشـاخصة إلى لا شيء.

- لكني دخلتها من قبل!

- لا شك أنك فعلت ذلك. الآن ليست حجرة المدير.

اندهـش جـدًّا. هـل يغـير المديـر مكانـه بهـذه السرعـة! ولمـاذا اليـوم؟ واسـتمر الرجـل:

- هؤلاء جميعًا سيموتون.

-..................................

- طبعًا أنت لا تصدقني. هذه حصة عزرائيل اليوم.

كانـت سـاقاه قـد بدأتـا ترتعشـان، لكـن الموقـف في الحقيقـة يدعـو أيضًـا للسـخرية. قـال:

- هل تقصد........

قاطعه الرجل على الفور:

- بالضبـط. هـذا مـن أصـول العـلاج. البروتوكـول الموقَّـع

بين المعهد وبين شركات الدواء الأجنبية لتجريب العقاقير الجديدة في مجال السرطان ينص على ذلك. عزرائيل وقَّع على البروتوكول كطرف ثالث ضامنًا للتنفيذ.

كاد يضحك، يقول للرجل «إنك تهزل» لكن الرجل استمر:

- أرجوك صدقني. أنا أخشى أن يخطئ عزرائيل فيقبض روحك.

«لا بُد أنني وقعت مع مجنون حقيقي». قال لنفسه وانصرف. لم ينسَ أن ينظر لمجلس الصمت الحزين حوله، وعاد يمشي في الطرقة التي جاء منها، طالت به كثيرًا، إذ كان تقريبًا لا يمشي حتى وصل في نهايتها إلى غرفة الممرضات. هكذا تقول اللافتة. طرق الباب فجاءه صوت أنثوي:

- ادخل.

دفع الباب برفق..

- صباح الخير.

- صباح النور.

كانت ممرضة حسناء مبتهجة. قالت لزميلتها الحسناء أيضًا:

- أول واحد يدخل علينا سليم..

ثم حدَّثته:

- تحت أمرك..

تردَّد، ثم قال:

- أنا.. أنا تائه!

ضحكت الممرضة.

- عايز تروح فين؟

- لا أدري.

نظرت لزميلتها مندهشةً. ضحكت الاثنتان معًا.

- طيب اقعد استريح يمكن تعرف عايز تروح فين.

جلس وفكر أن أحسن طريقة أن يحكي القصة كلها من البداية. وربما منذ جاءته وداد وكيف أمضت الليل معه، ثم اصطحبته من مكتبه إلى البار، حتى ما جرى لصاحب الشيء يقوله. كل ذلك سيكون مفيدًا الآن. فما يحدث هنا ليس أمرًا يخص المستشفى. إنها مؤامرة كونية، لكنه قال:

- لي صديق جاء اليوم للعلاج. قابلنا السيد المدير فأرسل معه طبيبًا شابًّا، وطلب منَّا أن ننتظره في الاستراحة جوار حجرة الكوبالت. انتظرناه أنا وفتاة كانت معي وقتًا طويلًا. لم يأت. قمنا نبحث عنه. تهت عن الفتاة وتاهت عنّي. ذهبت إلى حجرة المدير فلم أجدها..

ضحكت الممرضة.

- بس كده. انت لا تهت ولا حاجة. «وفجأة قالت بصوتٍ عالٍ» عايز إيه يا زفت؟

كان من الواضح أنها تخاطب شخصًا يقف بالباب خلفه.

نظر فوجد تومرجيًّا سمينًا أحمر الوجه يقف في يده جردل صغير قذر وخلفه تومرجي سمين أحمر الوجه ترك لحيته حول وجهه ويحمل مسَّاحة لمسح البلاط. قالت لزميلتها:

- مائة مرة قلنا المسح بعد ما نروَّح. خلاص مع السلامة.

ظل هو ينظر إليهما بدقة، وقال بصوت هادئ لأولهما:

- حضرة الزعيم؟

سمعته الممرضة فقالت للرجل:

- يخرب بيتك. انت اسمك الزعيم؟ عدنان!

ارتبك الرجل واهتزَّ الجردل في يده، وقال:

- كيف حالك يا سالم بك؟

نظرت الممرضتان كلٌّ منهما إلى الأخرى، ثم نظرتا إليهما واحدًا بعد الآخر.. وقال الزعيم:

- شفت يا سالم بك ماذا فعلت حكومتكم بي؟ رفعت عنّي الدعم المادي والمعنوي. عقدت اتفاقًا مع الزعيم الجديد أن تتخلَّى عنّي. قالت لي أن أبحث عن عمل أنا والوزير، ويكفي أنها لن تسلمنا للزعيم الجديد. لقد صادر الزعيم الجديد كل أموالي. هكذا صار حالي أنا والوزير المُخلص..

صرخت الممرضة في الزعيم:

- ماذا تقول؟ أنت تهذي يا روح أمك؟

لكن راشد، الذي لم يصدق ما يراه أو يسمعه لم يجد

شيئًا يقوله له، فقال للمرضة:

- كنت ستقولين لي أين أذهب؟

- إلى قسم تخطيط المخ. في الدور الأول. جوار الكوبالت. صديقك لا بُد انتهى من جميع الفحوص. آخر شيء هو التخطيط، بعدها يبدأ العلاج، غدًا أو بعد غد.

تردد قليلًا، ثم قال:

- لكن لا يعاني من ورم في المخ. أظن أنه الكبد.

- اذهب إلى التخطيط وهم يدلونك.

ثم قالت للزعيم:

- تعال أنت لتحكي لنا الحكاية. زعيم ووزير.. يا سلام، ولا ألف ليلة..

نهض راشد من مكانه ومرق من الباب متجاوزًا الزعيم وأسرع في الخطى.

......

تعطَّل به المصعد في الدور الثاني. لقد استقلَّ المصعد وحده هذه المرة. رآه أمامه فجأةً في الطرقة مفتوحًا وخاليًا فدخله بسرعةٍ، هو الذي كان قد قرر أن ينزل على السلم حتى لا يقابل في المصعد شخصًا كالذي قابله أول مرة. في الحقيقة هو لا يريد أن يرى أحدًا الآن. يريد الفرار من المكان، لكن هل يترك أسعد سعيد ووداد! وإذا كان أسعد سيموت اليوم فما ذنب وداد؟

تـرك المصعـد ومـشى في الطرقـة الـتي أمامـه. أنـين وبـكاء خافـت لا ينقطـع مـن خلـف الغـرف المغلقـة، ثـم بـدأت الغـرف تظهـر مفتوحـة الأبـواب. كأنمـا الطرقـة منقسـمة إلى قسـمين متسـاويين: الأول موصـدة أبوابـه عـلى أنـين، والثـاني مفتوحـة أبوابـه عـلى جحيـم. وكمـا سـمع فلينظـر. في حجـرة رأى مريضًـا جالسًـا عـلى السريـر تدلـت سـاقاه وإحداهمـا يتـدلى منهـا ورم ضخـم، وتومرجيـان يحـاولان رفـع الـورم وسـاق المريـض معًـا إلى السريـر، في غرفـة ثانيـة رأى مريضًـا في حجـم الفيـل نائـم تتـدلى مـن الناحيتـين عـلى جانـبي السريـر أجـزاء مترهِّلـة مـن جسـده كلـه. كائـن ضخـم جـدًّا لا يتحـرك فيـه غـير عينـين صغيرتـين للغايـة، نقطـتي حـبر أسـود تلمعـان وتتحـركان بدهشـة ورعـب.

يـا إلهـي. مـا الـذي يحـدث بأبنائـك الصغـار! بـدأ يشـعر بعطـف شـديد نحـو المـرضى، وفي الغرفـة التاليـة كان طفـل فـوق السريـر فوقـه كـرة قـدم مُعلَّقـة بخيـط في السـقف، والطفـل نائـم عـلى ظهـره ينظـر إلى الكـرة سـعيدًا.. وجـد نفسـه يدخـل الغرفـة ينظـر إلى الولـد الصغـير الـذي مـا إن رآه حـتى ابتسـم. كانـت عينـاه جميلتـين وكان أشـقر. راح الولـد يـضرب الكـرة بيـده اليُمـنى ويضحـك وهـي تـروح وتجـيء في فضـاء الغرفـة فـوق رأسـه. لكـن ذراعـه اليـسرى كانـت ضخمـة جـدًّا، مرفـق الـذراع في الحقيقـة كان مثـل جـوال صغـير!

- انت اسمك إيه؟

سأله الطفل سعيدًا. أجاب:

- راشد.. راشد سالم.

انتبه إلى أنه مزج الآن بين الاسمين. ثم سأل الطفل:

- وأنت؟

- حسن جميل حسن.

ثم ضحك وقال:

- أبي أسماني حسن حتى إذا ناداني أحد يقول حسن جميل، وقال أن جدي كان اسمه حسن وسماه جميل حتى إذا ناداه أحد يقول جميل حسن. أبي أيضًا أسماني حسن علشان لما ينطق اسمي الثلاثي يصبح حسن جميل مرة وجميل حسن مرة. ويعني حسن جميل مرتين. لعبة حلوة.

في هذه اللحظة طفرت دموعه. وسحب اللوح المعدني المعلَّق على السرير وقرأ اسم الولد كما قاله بالضبط. وقرأ عُمره فوجده عشر سنوات، وأنه تلميذ في مدرسة الراعي الصالح..

- أنت تبكي؟ أنت عيان واللا زعلان علشاني؟ أنا ح أخف.

- إن شاء الله ح تخف يا حسن.

وانحنى يقبِّله، فوجد الطفل يحتضنه بقوة من رقبته بيده اليمنى. لقد سقطت دموعه على عنق الولد حين ارتفع عنه. سأل نفسه لماذا يفعل ذلك حقًّا؟ ما الذي يربطه بهذا الطفل الجميل إلى هذا الحد؟ ثم ما هي حكاية الأسماء هذه! وكان الولد قد بدأ يتأثر ويخاف، فسأله:

- حضرتك دكتور؟

- لا.

- الدكاترة كلهم قالوا إني ح أخف.

- وأنا أيضًا أقول لك ح تخف يا حسن. يا حسن جميل حسن..

وابتسم، وابتسم حسن أيضًا، وراح يضحك، ويجفف هو دموعه، وسمع صوت نهنهة خلفه وبكاءً صامتًا. التفت. كانت امرأة جميلة متوسطة العمر تجلس في الركن تراقب الموقف كله. إنها أم حسن التي وقفت وتقدَّمت نحوه، وقالت:

- هذا الأستاذ سالم سليمان يا حسن الكاتب الكبير. كان بابا يحب يقرأ حكاياته. هو قال لك أن اسمه راشد سالم. لأ. هو يُخفي اسمه. يمزح معك..

وابتسمت، ونظرت إلى راشد، ثم قالت لحسن:

- لا بُد جاء لإجراء تحقيق صحفي عن المستشفى، ولا يريد أن يعرف شخصيته أحد.

ثم خاطبته:

- ليتك يا أستاذ سالم تكتب مقالًا مؤثرًا عن حسن.

اللعنة على سالم سليمان، حتى حزني سرقه منّي، وصار منسوبًا إليه. عواطفي سلبها منّي. آه لو عرف الناس حقيقة سالم هذا!

وسحبت الأم من درج الكومودينو نوتة صغيرة، وقالت:

- هذه نوتة حسن. ليتك تكتب له كلمتين فيها.

أمسك بالنوتة وفتح صفحاتها الأولى فوجدها مكتوبة بكلمات طيبة، وكذلك عدة صفحات أخرى ممهورة كلها بتوقيعات أشخاص هم عائلة حسن، فجوار الأسماء درجة قرابتهم، خالتك التي تحبك وعمتك التي تدعو لك بالشفاء وابن عم بابا، وهكذا.. استقر على صفحة خالية وكتب:

«يا صديقي حسن الجميل حسن، سوف تشفى، لأننا كلنا نحبك وندعو لك، والناس في الوطن كله. وإذا اجتمع كل هؤلاء على حب أحد فالله لا بُد يستجيب لدعائهم. وسأنتظرك لأقيم لك احتفالًا كبيرًا وأهديك بيانو جديدًا ومكتبةً -ونظر إلى الكرة المعلَّقة وكتب- وكرة قدم ومضرب تنس لا مثيل له».

ووقَّع باسمه «سالم سليمان» بعد أن تردد لحظةً، وأعطاه النوتة فقرأها حسن في فرح، واجتهد أن يرتفع ليقبِّله فلم يستطع، فانحنى هو عليه وقبَّله، فاحتضنه حسن مرةً أخرى لحظاتٍ، ثم تركه وقال هاتفًا:

- أنت شفت الغرفة التانية؟

- لا.

- يا ريت تمر عليها. فيها بهاء زميلي في المدرسة. أصل أنا باحبّه قوي..

زاد ارتباكه وتأثره، فخرج من الغرفة مُسرعًا..

لـم ينظـر في الغـرف الباقيـة. هـرول المسـافة الباقيـة مـن الطرقـة كلهـا. وقـف في آخـر الطرقـة يتنفـس. دلـف إلى طرقـة أخـرى عـن يسـاره، ومـشى يترنَّـح مسـتندًا عـلى الجـدران. تكاثـرت عليـه الـرؤى. طبيـب يـشرب المـاء في جمجمـة. حجـرة مفتوحـة ملوثـة جدرانهـا بالـدم، وفي وسـطها ممرضـات وتومرجيـة يأكلـون في بطـن مريـض. لسـانان يخرجـان مـن أذنـين ويتكلمـان. كلاب تعـوي عـلى أسـطح المنـازل فتتسـاقط النجـوم مـن السـماء. كاد رأسـه ينفجـر، لكنـه لمـح آخـر الطرقـة سـلَّمًا فهـرول إليـه.

مـا إن اقـترب منـه حـتى سـمع صـوت غنـاء أجـش. صوتًـا يـأتي مـن بعيـد. نـزل درجـات السـلم عـلى مهـل والصـوت يـزداد وضوحًـا. «مـا تحبنيـش بالشـكل ده وتغـير كتـير مـن ده وده. الحـب مـش غـيرة وشـجن. الحـب أكـتر مـن كـده».

الصـوت يـزداد وضوحًـا. يـا إلهـي! إنـه صـوت المغـنّي الأعمى. الأغنيـة أيضًـا لفايـزة أحمـد. لقـد غـيَّر أغانيـه هنـا. لكـن أيـن هـو بالضبـط؟ هـل عـاد إلى البـار ولا يـدري. انتهـى مـن الـنزول إلى الـدور الأول، ووجـد أمامـه طرقـة طويلـة، بـاردة، يهـب منهـا هـواء هـو الـذي يحمـل صـوت المغـنّي إليـه. المغـنّي يجلـس في نهايـة الطرقـة عـلى كـرسي ويحتضـن العـود.. مـشى إليـه في ذهـول. لا يمكـن أن يكـون قـد وصـل إلى البـار، ولا يمكـن أن يكـون البـار تغـير وصـار طويـلًا بـاردًا عـلى هـذا النحـو.. «بتغـير وأنـا قـدَّام عينيـك وباخـاف عليـك مـن غـيرتي أنـا».. وظـل يمـشي والمغـنّي يرفـع صوتـه بإخـلاص.

«بتغير وأنا قلبي في إيديك باهدي إليك كل المُنى» لقد صار يمشي بطيئًا الآن، وبدأ ذهوله يتحول إلى دهشة، ثم بدأ يبتسم «يا حبيبي دا احنا لبعضنا وحرام خصامنا وبُعدنا».. ثم قال فجأةً:

- مَن الذي يقترب مني؟ إيه يا بنات أغيّر الأغنية؟

كان قد صار أمامه تمامًا، واستمر المغنّي يتكلم:

- إياكم حد يعمل حاجة وحشة. أنا شايفكم. آه. ما تفكّروش أني أعمى..

- ماذا تفعل هنا؟

- مَن؟ حضرة الناظر؟

- أيّ ناظر؟

- ناظر المدرسة. آه صحيح هي ناظرة وليست ناظر. مَن أنت؟

ازداد ابتسامًا..

- أي مدرسة! هل تعرف أين أنت الآن؟

- في مدرسة التمريض.

ضحك. ضحك من قلبه.

- يا رجل أنت في المستشفى. في مركز السرطان.

- مستشفى نعم. سرطان لا. يا ساتر يا رب. على أيّ حال المهم الغناء يكون عاجب الآنسات ممرضات المستقبل.

ضرب كفًّا بكف، فقال المغنّي.

- مالك يا أستاذ فيه إيه بالضبط؟

- أنت قاعد في طرقة لوحدك وليس فيها أي بني آدم..

- الله الله الله! إذًا من أين هذه الأنفاس التي أسمعها؟

- هـذه الصالـة بالـذات خاليـة، ليـس فيهـا غرفـة ولا عنـبر. مَـن الـذي أتى بـك إلى هنـا؟

- واحـد ابـن حـرام قـال لي تعـال غـنّي في مدرسـة التمريـض لأن هنـاك حفـل تخـرج. أحـضرني هنـا وقعدني.-توقـف لحظـة- ثـم مـن أنـت بالضبـط؟ لمـاذا تريـد أن تغشـني؟ أقـول لـك أنـا سـامع الأنفـاس حـولي.

- يا راجل يا فنان أنا لا أسمع أي نفس.

- يا نهار أسود. تكون أنفاس الميتين؟

ضحك هو ووقف المغنّي مرعوبًا بحق.

- طيـب خـذ بيـدي لحـد السـلم. اللـه يخـرب بيتـك يـا مـن عملـت فيَّ هـذا الملعـوب.

أخذ ذراعه في يده ومشيا. قال المغنّي:

- لكن أنا يا أخي عارف صوتك. أنت لست غريبًا عليَّ..

- أنا سالم سليمان.

- الكاتب زميلنا في البار؟

لـم يـرد لأن رجـلًا تتـدلى حنجرتـه مـر أمامهمـا فجـأةً فحمـد

سالم الله للمغني لأنه لا يرى ذلك، ثم مرت امرأة تمشي تتخبَّط في الجدران وتصرخ «يا إله الكون» قال المغنّي مرتعشًا..

- بسرعة سلّمني السلم الله يخليك. لكن أنت من أحضرك هنا ؟

- فيما بعد أحكي لك. السلم قدامك. سأنزل معك.

- الله يسترك. هي الدنيا ضلمت واللا إيه؟

كان السلم غير مُضاء لكن كيف عرف المغنّي؟ سمع نهنهةً ونشيجًا في ظلام السلم. قال المغنّي:

- من يبكي؟ هذا صوت امرأة..

- انزل معي من غير كلام. الناس كلها تبكي هنا.

جاءه صوت المرأة مخنوقًا:

- سالم. أخيرًا ظهرت يا حبيبي.

رآها أمامه.. وداد!

- انتي؟ أنا أبحث عنك. لم أعرف كيف أعود إليك.

هتف المغنّي:

- الأخت الفنانة. الله أكبر. هاتها وتعال البار أحسن..

وضحك. كانوا قد وصلوا إلى الدور الأرضي، والإضاءة كانت شديدة لكن لا أحد في أي مكان أمامهم..

- اسمع. أمسك أنت الجدار يوصلك لباب الخروج. نحن

سنبحث عن أسعد.

- أسعد سعيد؟ لا. قدامكم وقت طويل. سلامُه عليكم.

وقف هو ووداد ترتعش. ضمها إلى صدره بهدوء.. قال في حنان:

- ما زلتِ خائفة؟

لم ترد..

وراحت يداه تمشيان على ظهرها بحنان. كانت باردةً وعهده بها ساخنة دائمًا. أتكون ماتت بين يديه؟ لكنه يسمع أنفاسها.. قالت بضعف:

- هيا نخرج من هنا.

- ألن تبحثي عن أسعد سعيد؟

لم ترد.

فجأة ظهرت امرأة تلطم خديها وتصرخ: «بروفين.. بروفين.. بروفين يا عالم. مورفين يا ربي. يا ربي. يا إله الكون اسمعني. يا إله الكون. ارحمني يا إله الكون».

وظهرت ممرضة تجري إليها في يدها سرنجة فسقطت المرأة تتمرغ على الأرض وتصرخ. انحنت عليها الممرضة وجلست على بطنها، وبطريقة مدرَّبة رشقت السرنجة في فخذها الذي كان قد تعرَّى تمامًا مع فخذها الآخر، والمرأة تصرخ بصوت ذبيح: «يا إلــاااااااااااه الكــووووووون» وتهمد حركتها شيئًا فشيئًا، ووداد انهارت جالسةً على مهل

في غشـاوة متدرجـة، بينمـا راشـد قـد أغمـض عينيـه. ظهـرت تومرجيتـان حاولتـا حمـل المـرأة، ثـم رفعـت إحداهمـا رأسـها ناحيـة الممرضـة وقالـت: «شـكلها ماتـت»!

وقفـت الممرضـة لحظـةً، مصدومـةً، ثـم انتبهـت لراشـد والفتـاة فصرخـت فيهمـا: «انتـوا هنـا ليـه؟ مـا تروّحوا اللـه يخرب بيوتكـم».. وأسرعـت، وجـرَّتْ التومرجيتـان المـرأة خلفهمـا عـلى الأرض.

احتاجـت وداد نصـف سـاعة حـتى تُفيـق مـن غشـيتها. مشـيا. يحيـط كتفيهـا بذراعـه وهـي تنتحـبُ بصـوتٍ خفيـضٍ. وصـلا إلى نهايـة الطرقـة فوجـدا الدنيـا ظلامًـا في الخـارج. لا أحـد يقـف ولا صـوت في المستشـفى مـن أيّ ناحيـة. للحظـة فكَّـر أن البـاب الخارجـيَّ الموصِّـل للشـارع قد يكـون مغلقًـا، لكنـه كان مفتوحًا، كان حارسـه رجـل الأمـن الـذي رآه حـين دخـل، الصغـير الحجـم جـدًّا ذا الوجـه العجـوز، يهـمُّ بإغلاقـه بجنزيـر سـميك وقفـل ضخـم. رآهمـا فابتسـم ابتسـامته الطفوليـة..

- مع السلامة. لقد انتظرت خروجكما طويلًا!

قال ذلك وهو يرفع يده بالتحية كالأطفال أيضًا.

كان الشـارع أمـام المستشـفى واسـعًا جـدًّا، مُضـاءًا بالنـور إلى درجـة غـير عاديـة، والبيـوت عـلى الجانبـين منخفضـة موصَـدة أبوابهـا ونوافذهـا ولا أحـد في الطريـق. للحظـةٍ فكَّـر أن يقـف ويسـتقل تاكسـيًا، ولعـن نفسـه إذ كـره أن يسـتقل سـيارته، لكنـه فكـر أن يومًـا كهـذا لا بُـد ينتهـي نهايـة سـيئة حـتى ولـو في تاكـسي!

- الميدان قريب. بعده نذهب إلى البار. لا بُد سنجد أسعد هناك.

قال ذلك، لكنها لم ترد..

كان مطر خفيف قد بدأ يسقط على المدينة، وكانا وهما يمشيان في صمت قد أحاطت ذراعه بكتفيها، وراح يستعيد ما مر به من أحداث وما رآه اليوم غير مصدق، وجعله المطر، رغم قِلته، يُسرع الخُطى، إذ لم تكن هناك شرفات في بيوت هذا الشارع، وبعد مسافة طويلة، وهو يقترب من الميدان، اكتشف أنه يمشي وحده. عقدت الدهشة قدميه لحظات، لكن الميدان الكبير بدا واسعًا للغاية أمامه، وشد انتباهه أنه لم يكن فيه مصباح واحد مضيء في محيطه، لكن في مركزه بالضبط عدة أعمدة مُضاءة يجلس تحتها بعض الرجال والنساء رافعين الشماسي السوداء فوق رؤوسهم. جذبه المنظر فأخذ طريقه إليهم. كانوا عشرة أو عشرين. بدا له أنهم الذين بقوا في المدينة، ولم تكن هناك سيارة واحدة في الشوارع المحيطة بالميدان، ولا في الجراجات الصغيرة على محيطه. مشى ناحية الضوء وميَّز من بعيد المغنّي يجلس أمامهم، وفرح، فرح ولا أحد آخر يقف جواره رافعًا شمسية صغيرة فوقه، في الوقت الذي يسقط عليه هو المطر، والمغنّي الأعمى يعزف ولا موسيقى تخرج من العود، يغني ولا صوت يخرج منه، والجالسون صامتون، يستمعون في خشوع، ومن عجبٍ أن المغنّي لم يسمع أنفاسه وهو يقترب منهم، ولا فرح تعرَّف عليه وهو يراه. وجد مكانًا خاليًا كأنما كان قد تُرِك له بين سيدتين

بدينتـين، فجلـس بينهمـا ولا يعـرف مـن أيـن سـقطت الشمسـية السـوداء الصغـيرة عـلى حِجـره، فرفعهـا فـوق رأسـه وأنصـت مـع المُنصتـين...

انتهت

الإسكندرية - القاهرة

2000 - 2002





في عام ٢٠٠٣ صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عن دار الآداب البيروتية. اعتذرت دور النشر المصرية عن نشرها. ومُنعَت من دخول مصر فترة. مُنعَت تقريبًا من دخول كل الدول العربية، لا أعرف لماذا! ثم صارت تُزوَّر وتُباع سرًا في مصر. نُعيد نشرها الآن. أتذكر أيام كتبتُها. كان كل شيء مضطربًا حولي في مصر. فكرتُ أن أطلق عليها "رواية سيريالية" لأتخلص من الأسئلة. ثم فكرت أن هناك من يجد فيها واقعًا حقيقيًا. فكرت أن أطلق عليها "رواية واقعية"، لكن فيها خيالًا جامحًا. إذًا هي رواية وكفى... "برج العذراء" ليس برجًا فلكيًا لكنه اسم حانة يجتمع فيها رجال ونساء. الجميع تقريبًا يبحث عن البكارة الضائعة من حياتهم. تختفي المدينة من حولهم في النهاية أو يختفون منها... لا فرق.

المؤلف

إبراهيم عبد المجيد
روائي مصري كبير، صدر له خمس عشرة رواية وخمس مجموعات قصصية وكتب متنوعة أخرى. من أهم أعماله "ثلاثية الإسكندرية" و"البلدة الأخرى" و"عتبات البهجة" و"أداجيو" و"هنا القاهرة" وتُرجم كثير من أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية والإيطالية. حاز جوائز مهمة منها جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية ١٩٩٦، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب

